ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ
وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم
بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ (القرآن الحكيم)

الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ١١ ، السنـــــة : ٤٧

ذوالقعدة ١٤٤٤هـ ، مايو – يونيو ٢٠٢٣م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ٣٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٣٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت
Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني
E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس
Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

- زلازل في مناطق واسعة من الهند — التحرير — ٣

كلمة العدد

- حرية النقاش في الإسلام — محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري — ٤

الفكر الإسلامي

- من ظلال التفسير — العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله — ١٠

دراسات إسلامية

- أهمية التكافل الاجتماعي في الإسلام — الدكتور عبد الباسط الغرابلي — ١٦
- من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند — الأستاذ سيد محبوب الرضوي الديوبندي رحمه الله — ١٩
- الذوق في الإسلام — الدكتور محمد كامل الفقي — ٢٥
- حول الإسرائيليات في كتب التفسير — الأستاذ محمد عزة دروزة — ٢٩
- أمسك عليك لسانك — الأستاذ محمد رضوان القاسمي — ٣٦
- حفظ القرآن الكريم وفوائده — الدكتور محمد شمشاد القاسمي — ٤٣
- ابن الخطاب يوجّه الشعراء — الدكتور عبد الرحمن عثمان — ٤٩
- النفاق الذي واجهته الدعوة — الشيخ عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني — ٥٢

إشراقة

- التواضع المتكبر — أبو عائض القاسمي المباركفوري — ٥٦

كلمة المحرر

زلازل في مناطق واسعة من الهند

أكتب هذه السطور صبيحة الليلة المتخللة بين يومي الثلاثاء والأربعاء ٢٨-٢٩/شعبان المعظم عام١٤٤٤هـ، الموافق ٢١-٢٢ من شهر مارس ٢٠٢٣م بالتوقيت الهندي، والأنباء تترى من مختلف البلاد بزلازل وهزات أرضية بلغت قوتها نحو ٦,٦ درجات، في الوقت الذي لاتزال ذكرى زلازل وهزات أرضية ضربت كلا من تركيا وسورية في الآونة الأخيرة، و أودت بحياة الآلاف من البشر، وسببت دمارًا شاملا يقدر بالمليارات في مختلف أنحاء تركيا وسورية لاتزال ذكراها ماثلة في القلوب، وتقشعر من ذكرها الجلود، وتنخلع الأفئدة.

وتفيد الأنباء التي بثَّت وتبُثُّها وسائل الإعلام الهندية المرئية والمكتوبة والمسموعة أن هذه الزلازل زرعت الخوف والذعر في سكان المناطق المتضررة في «دهلي» العاصمة وضواحيها بالإضافة إلى مختلف الولايات الهندية، الذين اضطروا إلى الهروب من المنازل والشقق في المباني الشاهقة إلى الشوارع مخلِّفين وراءهم كل ما ملكوا من غالٍ ورخيص فرارًا بنفوسهم و أرواحهم. وهذه الأحداث تذكِّرنا بيوم القيامة الذي يقول فيه المرء: نفسي نفسي، ويفر من أقرب الناس وألصقهم به، يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٧]. ويقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج:٨-١٤]. و يقول تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الدخان:٤٠-٤١].

وهذه الزلازل وهذه الآيات الربانية يريها الله تعالى البشرَ ليعودوا إلى رشدهم، وينظروا في أنفسهم، ويرعووا عما هم فيه من عصيان رب العالمين، وكفرهم به، وجحودهم له، ولقد صدق الله تعالى إذ قال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت:٥٣ -٥٤] «أي لايسعهم إلا الإيمان بأنه حق فمن كان منهم شاكًّا من قبلُ عن قلة تبصرٍ حصل له العلم بعد ذلك، ومن كان إنما يكفر عنادًا واحتفاظًا بالسيادة افتضح بهتانه وسفَّهه جيرانه. و كلاهما قد أفات بتأخير الإيمان خيرًا عظيمًا من خير الآخرة بما أضاعه من تزود ثواب في مدة كفره ومن خير الدنيا بما فاته من شرف السبق بالإيمان والهجرة».

وهذه الزلازل على شدتها لم تحدث من الأضرار في الأرواح والأموال والبنية التحتية ما يخشى مع أمثالها القوية البالغة نحو هذه الدرجة، فكل ذلك دليل على أن الله تعالى يفعل ما يشاء، وهو الذي يكلأ البشر في خضم أسباب الهلاك والدمار إذا شاء، ويهلك العصاة الطغاة بأتفه الأسباب إن أراد. ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١]. فاعتبروا أيها المسلمون بهذه المنذرات والمخوفات الإلهية، وعودوا إلى رشدكم، وأنيبوا إلى خالقكم وبارئكم، واستغفروه من ذنوبكم، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧]. [التحرير]

(تحريرًا في الساعة العاشرة صباحًا من يوم الأربعاء: ٢٩/شعبان ١٤٤٤هـ=٢٢/مارس٢٠٢٣م)

حرية النقاش في الإسلام

الإسلام دين الله الخالد جاء ليخرج من شاء من عباده من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده لاشريك له، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. وجاء الإسلام ليكرم بني آدم، ويفسح له مجال التفكير وحرية الرأي والنقاش، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠]. وأسمى تكريم الإنسان هو خلقه حرًّا طليقًا، ليفكر ويعمل رأيه فيما يختاره ويدعه ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠]. فالناس كلهم عبيد لله وحده، وليسوا عبيدًا لأحد سواه سبحانه وتعالى. فهذه هي رسالة الإسلام، وهذه هي دعوة الإسلام، دعوة للإنسان كل الإنسان، وفي الأرض كل الأرض. فلايستعبد بعضهم بعضًا، ولايتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله تعالى.

ومن الحريات التي كفلها الإسلام للإنسان حرية الرأي والمناقشة حتى مع الرسول ﷺ؛ بل مجادلته كما يتجلى من الأمثلة التالية.

مناقشة ومجادلة امرأة مع الرسول ﷺ:

تحكي لنا كتب الحديث والتفسير قصة خولة بنت ثعلبة التي ظاهر منها زوجها، وأفتاه الرسول ﷺ بتحريمها عليه، ثم نزلت أوائل سورة المجادلة.

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

قال الإمام أحمد: عن خويلة بنت ثعلبة قالت: فيّ- والله- وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده، وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقه، قالت: فدخل علي يومًا فراجعته بشيء، فغضب فقال: أنت علي كظهر أمي. قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعةً، ثم دخل علي فإذا هو يريدني عن نفسي، قالت: قلت: كلا، والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إلي، وقد قلتَ ما قلتَ، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه، قالت: فواثبني، فامتنعت منه، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني، قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي، فاستعرت منها ثيابًا، ثم خرجت حتى جئت

إلى رسول الله ﷺ فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يا خويلة، ابن عمك شيخ كبير، فاتقي الله فيه». قالت: فو الله، ما برحت حتى نزل فيّ القرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ثم سري عنه، فقال لي: «يا خويلة، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآنًا- ثم قرأ علي ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾- إلى قوله تعالى- ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. قالت: فقال لي رسول الله ﷺ: «مريه فليعتق رقبة» قالت: فقلت: يا رسول الله، ما عنده ما يعتق، قال:«فليصم شهرين متتابعين» قالت: فقلت: والله، إنه لشيخ كبير ما به من صيام. قال: «فليطعم ستين مسكينا وسقًا من تمر». قالت: فقلت: والله يا رسول الله، ما ذاك عنده. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «فإنا سنعينه بعرق من تمر» قالت: فقلت: يا رسول الله، وأنا سأعينه بعرق آخر. قال: «قد أصبت، وأحسنت، فاذهبي فتصدقي به عنه ثم استوصي بابن عمك خيرا» قالت: ففعلت[1].

وقال الماوردي: روى الحسن أنها قالت: يا رسول الله، قد نسخ الله سنن الجاهلية وإن زوجي ظاهر مني، فقال رسول الله ﷺ: «ما أوحي إليّ في هذا شيء» فقالت: يا رسول الله أوحي إليك في كل شيء و طوي عنك هذا؟ فقال: «هو ما قلت لك». فقالت: إلى الله أشكو لا إلى رسوله، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾ الآية[2].

وقال الثعلبي في تفسيره: وروى هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنّ اسمها جميلة، و زوجها أوس بن الصامت- أخو عبادة بن الصامت-، وذلك أنّها كانت حسنة الجسم فرآها زوجها ساجدةً في صلاتها فنظر إلى عجزها، فلمّا انصرفت أرادها، فأبت عليه فغضب عليها، وكان امرءًا فيه سرعة ولمم. فقال لها: أنت عليّ كظهر أمّي. ثم ندم على ما قال، وكان الظهار والإيلاء من طلاق أهل الجاهلية. فقال لها: ما أظنك إلّا قد حرمت عليّ. قالت: لا تقل ذلك، ائت رسول الله ﷺ فسله. فقال: إني أجدني أستحيي منه أن أسأله عن هذا. قالت: فدعني أسأله. قال: سليه. فأتت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعائشة تغسل شقّ رأسه، فقالت: يا رسول الله، إنّ زوجي أوس بن الصامت تزوّجني، وكنت شابّة جميلة ذات مال وأهل، حتى إذا أكل مالي، وأفنى شبابي، وتفرّق، وكبرت سنّي ظاهرَ منّي وقد ندم، فهل من شيء يجمعني وإيّاه ينعشني؟ فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حرمت عليه». فقالت: يا رسول الله، والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقًا، وإنّه أبو ولدي، وأحبّ الناس إليّ. فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حرمت عليه». فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي، قد طالت صحبتي ونفضت له بطني. فقال رسول الله -عليه السّلام-:

«ما أراك إلّا وقد حرمت عليه، ولم أومر في شأنك بشيء». فجعلت تراجع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا قال لها رسول الله -عليه السّلام-: «حرمت عليه» هتفت، وقالت: أشكو إلى الله فاقتي وشدّة حالي، اللّهمّ، فأنزل على لسان نبيّك. وكان هذا أول ظهار في الإسلام. فقامت عائشة تغسل شقّ رأسه الآخر، فقالت: انظر في أمري، جعلني الله فداك يا نبيّ الله. فقالت عائشة: اقصري حديثك ومحادثتك، أما ترين وجه رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه أخذه مثل السبات؟ فلمّا قضي الوحي قال: «ادعي زوجك». فجاء، فقرأ ما نزل عليه ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ ثم بيّن حكم الظهار، وجعل فيه الكفّارة، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾ إلى آخرها، قالت عائشة: تبارك الذي وسع سمعه الأصوات كلّها، إنّ المرأة لتحاور رسول الله، وأنا في ناحية البيت أسمع بعض كلامها، ويخفى عليّ بعضه، إذ أنزل سبحانه: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ «الآيات»(٣).

وروي أنها قالت: وإن لي صبية صغارًا، إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلي جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللّهم إني أشكو إليك، اللّهم فأنزل على لسان نبيك فرجي، وكان هذا أول ظهار في الإسلام(٤).

وإنما سقتُ هذه الروايات المختلفة للقصة ليتبين بجلاء مدى حرية النقاش والحوار، التي كان يتمتع بها الصحابة رجالًا ونساءً حتى مع خاتم الأنبياء محمد ﷺ، دون أن يجد النبي ﷺ حزازة في نفسه تجاه من يناقشه ويراجعه.

النقاش حول النزول في بدر:

قال ابن إسحاق: مضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي، خلف العقنقل وبطن الوادي، وهو يليل، بين بدر وبين العقنقل، الكثيب الذي خلفه قريش، والقلب ببدر في العدوة الدنيا من بطن يليل إلى المدينة. وبعث الله السماء، وكان الوادي دهسًا، فأصاب رسول الله ﷺ و أصحابه منها ما لبد لهم الأرض، ولم يمنعهم عن السير، وأصاب قريشًا منها ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه. فخرج رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبادرهم إلى الماء، حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به».

قال ابن إسحاق: حدثت عن رجال من بني سلمة أنهم ذكروا أن الحباب بن المنذر بن الجموح قال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب و المكيدة؟ قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة» قال: يا رسول الله، إن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم تغور ما وراءه من القلب؟ ثم تبني عليه حوضًا فتملأه ماءً ثم تقاتل فتشرب ولا يشربون، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لقد أشرت

بالرأي». فنهض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن معه من الناس، فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم، فنزل عليه، ثم أمر القلب فغور، وبنى حوضًا على القليب الذي نزل عليه فملئ ماءً، ثم قذفوا فيه الآنية. وروينا عن ابن سعد في هذا الخبر: فنزل جبريل عليه السلام على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: الرأي ما أشار به الحباب(٥).

ألا ترى كيف أن هذا الصحابي رغم ما يكنه في قلبه من الحب والاحترام المتناهي تجاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لم يمنعه ذلك كله عن إبداء رأيه، ومناقشته معه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فيما رأى أنه خير، وأحسن مكيدةً في الحرب. وفعلًا استجاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لرأيه، وأمر الناس بالتوجه إلى المكان الذي أشار به. وهل تجد معشار هذه الحرية في النقاش مع أدنى موظفي الحكومات اليوم فضلًا عن الرئيس الأعلى، والملك ورئيس الوزراء؟ لا، والله، فهذا هو الإسلام الذي جاء ليحرر العباد من الرق والعبودية لبشر مثله.

النقاش في أسرى بدر:

وفي القصة ذاتها نرى صورة أروع أخرى لحرية النقاش والرأي حيث استشار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه في أسرى بدر كيف يفعل بهم؟ ونحن إذ نقلب صفحات كتب التاريخ والتفسير وغيرها نجد أن الصحابة ناقشوا في هذا الأمر نقاشًا حادًّا حينئذ. لندع أنس بن مالك رضي الله عنه يحكي لنا هذه الحرية في النقاش الحاد، فقد روى الإمام أحمد رحمه الله عنه فقال: استشار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس في الأسارى يوم بدر، فقال: «إن الله قد أمكنكم منهم». فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم عاد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «يا أيها الناس، إن الله قد أمكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس». فقام عمر، فقال:يا رسول الله، اضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم عاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء. قال: فذهب عن وجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما كان فيه من الغم، فعفا عنهم، وقبل منهم الفداء. قال: وأنزل الله عز وجل: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وقد سبق في أول السورة حديث ابن عباس في صحيح مسلم بنحو ذلك.

وقال الأعمش: عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: لما كان يوم بدر، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما تقولون في هؤلاء الأسارى؟» فقال أبو بكر:يا رسول الله، قومك وأهلك، استبقهم واستتبهم، لعل الله أن يتوب عليهم، وقال عمر: «يا رسول الله، كذبوك، وأخرجوك فقدمهم، فاضرب أعناقهم. وقال عبد

الله بـن رواحـة: يـا رسـول الله، أنـت في واد كثـير الحطب، أضرم الـوادي عليهم نـارًا، ثـم ألقهـم فيـه، قـال فـسكت رسـول الله ﷺ فلـم يـرد عليهم شيئًا، ثم قام فدخل، فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة.

ثـم خـرج علـيهم رسـول الله ﷺ، فقال: «إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام، قال ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦]، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام، قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨]، وإن مثلك يا عمر، كمثل موسى عليه السلام، قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ [يونس:٨٨] وإن مثلك يا عمر، كمثل نوح عليه السلام، ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦] أنتم عالة فلا ينفكن أحد منهم إلا بفداء، أو ضربة عنق».

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قلت: يا رسول الله إلا سهيل ابن بيضاء، فإنه يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع علي حجارة من السماء مني في ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ﷺ: «إلا سهيل ابن بيضاء». فأنزل الله عز وجل ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ إلى آخر الآية(٦).

لاتكسر ثنية الربيع:

ومـن صـور الحريـة في النقـاش والحـوار مـع رسـول الله ﷺ، مـارواه البخـاري عـن أنس، أن الربيع عمته كسرت ثنية جارية، فطلبوا إليها العفو فأبوا، فعرضوا الأرش فأبوا، فأتوا رسول الله ﷺ وأبوا، إلا القصاص فأمر رسول الله ﷺ بالقصاص، فقال أنس بن النضر: يا رسول الله، أتكسر ثنية الربيع؟ لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها، فقال رسول الله ﷺ: «يا أنس، كتاب الله القصاص». فرضي القوم فعفوا، فقال رسول الله ﷺ: إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»(٧).

أعرابي يراجع النبي صلى الله عليه وسلم:

وأعجب من ذلك وأطرف أن رجلًا من الأعراب، يشتري منه الرسول ﷺ فرسًا، ثم يزيد بعضهم في الثمن الذي بيع به الفرس دون علم بشراء رسول الله ﷺ، فيراجع الأعرابي ويناقشه،روى البيهقي في السنن الكبرى عن الزهري قال:حدثني عمارة بن خزيمة ، أن عمه، أخبره وكان من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ ابتاع فرسًا من رجل

من الأعراب فاستتبعه ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المشي وأبطأ الأعرابي، وطفق رجال يعترضون الأعرابي، فساوموه بالفرس، ولا يشعرون أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد ابتاعه حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما زاده نادى الأعرابي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: إن كنت مبتاعًا هذا الفرس فابتعه أو لأبيعنه، فقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين سمع نداء الأعرابي حتى أتاه الأعرابي، فقال له: «أولست قد ابتعته منك؟». فقال الأعرابي: لا والله، ما بعتك. قال: فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بلى قد ابتعته منك»، فطفق الناس يلوذون برسول الله ﷺ وبالأعرابي وهما يتراجعان، وطفق الأعرابي يقول: هلم شهيدًا يشهد أني بايعتك، فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي: ويلك، إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن يقول إلا حقًّا، حتى جاء خزيمة فاستمع ما يراجع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويراجع الأعرابي وطفق الأعرابي يقول: «هلم شهداء يشهدون أني بايعتك. قال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خزيمة قال: «بما تشهد؟» قال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شهادة خزيمة شهادة رجلين»(٨).

وروى البيهقي عن حرام بن سعد بن محيصة، عن أبيه، عن جده، أنه استأذن رسول الله ﷺ في خراج الحجام ، فمنعه إياه، فلم يزل يراجع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويذكر له حاجته حتى أذن له أن يعلفه ناضحه ورقيقه(٩).

هذه بعض صور حرية النقاش والحوار والرأي في الإسلام، وصفحات التاريخ الإسلامي ملآنة بمثل هذه الأحداث التي تؤكد حرص الإسلام على أن يعيش الناس أحرارًا، أحرارًا في الدين والعقيدة، و أحرارًا في مناقشة غيرهم، وإن كانوا حكامًا ورؤساء، مما لايجد الدارس معشاره في تاريخ غير الإسلام. وكل ذلك يشكل صفعةً قويةً في وجه كل من يتهم الإسلام بالجمود والخمود والتضييق على الرأي والحرية في الفكر والدين والعقيدة.

* * *

الهوامش:

(١) مسند الإمام أحمد برقم [٢٧٣١٩]، وسنن أبي داود برقم [٢٢١٤].
(٢) النكت والعيون في تفسير الآية.
(٣) الثعلبي في تفسير الآية.
(٤) البغوي في تفسير الآية.
(٥) عيون الأثر ١/٢٩٣.
(٦) مسند الإمام أحمد برقم [١٣٥٥٥]؛ دلائل النبوة للبيهقي ٣/١٣٨؛ تفسير ابن كثير ٤/٧٨.
(٧) صحيح البخاري برقم [٤٥٠٠].
(٨) السنن الكبرى برقم[١٣٤٠٤].
(٩) السنن الكبرى برقم[٧٤٤].

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
(تحريرًا في الساعة العاشرة صباحًا من يوم الخميس: ٥/جمادى الأولى ١٤٤٤هـ الموافق ١/ديسمبر ٢٠٢٢م)

من ظلال التفسير

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)
تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري(*)

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾

أي لو أن أهل الكتاب - رغم هذه الجرائم الشنيعة والشرور - تابوا وآمنوا بمحمد ﷺ والقرآن الكريم، واتقوا الله تعالى، فإن التوبة بابها لم يغلق بعدُ، وإنه سبحانه يمن عليهم بالنعم في الدنيا والآخرة بفضله وكمال رحمته، وإن رحمته لايقنط منها حتى أكابر المجرمين إذا ندموا على ما فرط منهم، وتابوا وأنابوا إلى الله تعالى.

وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

أي يقيمون القرآن الكريم النازل بعد التوراة والإنجيل لتنبيههم وهدايتهم، فإنه يستحيل إقامة التوراة والإنجيل كما يجب من غير الإيمان بالقرآن الكريم. فإن إقامة التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية لاتعني إلا الإيمان بما جاء من القرآن والنبي الخاتم محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على وفق بشارة الكتب السابقة، فكأنه سبحانه نبه بذكر التوراة والإنجيل على أن عدم إيمانهم بالقرآن يعني أنهم أبوا حتى الإيمان بكتبهم.

فائـــدة: أي لمتعناهم بالبركات الأرضية والسماوية كلها، ولرفعنا عنهم ما عوقبوا به على معصيتهم من الذل والبؤس وضنك العيش.

فائـــدة: هؤلاء هم نفر ممن سلكوا طريق الوسط والاعتدال ولبوا نداء الحق بما فطروا عليه من السعادة، ومنهم عبد الله بن سلام، والنجاشي ملك الحبشة وغيرهما رضي الله عنهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾

تحدثت الآية السابقة عن شرور أهل الكتاب، وكفرهم وسوء أعمالهم، ثم رغَّبت في إقامة التوراة

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

والإنجيل والقرآن وغيرها من الكتب السماوية، وقوله فيما يأتي (قُلْ يَـٰٓأَهْلَ الْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ) بمثابة الإعلان عن أن حياتكم الدينية لاشيء ولاقيمة لها من غير إقامة الدين. وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧] إعداد للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتهيئة له لهذا الإعلان الصريح، أي بلغ – بغير دغدغة ولا مخافة ولا تأمل- ما أنزل الله تعالى عليك وخاصة مثل هذه الإعلانات الحاسمة.

وهَب أنك قصَّرت في تبليغ شيء من ذلك، فكأنك لم تؤد – بصفتك رسولا من الله تعالى، وما أضفى الله عليك من هذا المنصب الجليل- شيئًا من حقه. وليس هناك أسلوب أكثر تأثيرًا منه في حق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتثبيت أقدامه أكثر فأكثر على أداء واجب الحق. فما قام به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طوال عشرين أو اثنين وعشرين عامًا من أداء واجب الرسالة والتبليغ بعزيمة صادقة، ومشقة كبيرة، واجتهاد متواصل ، وصبر وثبات لامثيل له، أوضح دليل على أنه كان يستشعر ما نيط به من مسؤولية الرسالة والتبليغ أشد من أي شيء في الدنيا. ونظرا إلى استشعار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا القوي، وجهاده الدعوي، وللتأكيد على مزيد من التثبت والصبر في أداء واجب التبليغ لم يكن هناك أسلوب أعمق تأثيرًا من أن يخاطب النبي ﷺ بـ(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ)، ويقال له: هب أنك قصرت في شيء من الدعوة والتبليغ فكأنك فشلت في أداء واجبك نحو التبليغ والدعوة. وغير خافٍ أن ما بذله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المساعي والجهود، وما قدمه من التضحيات لم يكن يتوخى من خلاله إلا أن ينال أعلى درجات الفوز والفلاح في أداء واجب الرسالة عند الله تعالى. فهيهات أن يقصر في تبليغ شيء من الأحكام. ومن المجرب المشاهد أن المرء لايقصر في تبليغ الأحكام والدعوة إلا لأنه لايشعر بأهمية واجبه وفريضته، ولايولع به ولعًا، أو يصاب بضرر فاحش من معارضة الناس له بصورة عامة، أو يخاف فوات بعض الفوائد على أقل تقدير، أو يتوجس خيفة من تنمر من يدعوهم وطغيانهم - كما أشارت الآيات السابقة واللاحقة إلى ذلك في حق أهل الكتاب - فييأس من ترتب ثمرات الدعوة و نتائجها. فالعلة الأولى رد عليها بقوله: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ) إلى قوله: (فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ)، وكشف العلة الثانية بقوله: (وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ)، وأجاب عن العلة الثالثة بقوله: (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ).

أي داوم على أداء ما يجب عليك، والله تعالى حافظ لنفسك وعرضك، والله تعالى لايهدي أعداءك المعارضين لك على وجه البسيطة كلها. والهداية والإضلال بيد الله تعالى. فلاتحزن على قوم

استعدت للكفر والإنكار، وحذارِ أن تتخلى عن وظيفتك يأسًا منهم. فقام النبي صلى الله تعالى بتبليغ كل صغير وكبير إلى الأمة نزولا عند هذا التوجيه الرباني والدستور السماوي. وبلغ النوع البشري كله عامتهم و خاصتهم ما يليق بكل واحد، وما يتهيأ له كل شيء من غير نقص ولازيادة، ولاخوف لومة لائم. فأتم الحجة على عباد الله تعالى، وأعلن قبل وفاته بنحو شهرين في حجة الوداع - التي شهدها أكثر من أربعين ألفًا من خدَم الإسلام، وعشاق الدعوة - على رؤوس الأشهاد: قد بلغت الأمانة، اللّٰهم فاشهد.

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾

أي القرآن الكريم خاتم سائر الكتب السماوية والمهيمن عليها. وسبق تفسير هذه الآية في الركوع الماضي.

فائدة: أي حذار أن تحزن عليه، وتضيق ذرعًا به، وما عليك إلا أن تقوم بواجبك في طمانينة وراحة نفس.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

أي من يطلق على نفسه اسمَ الإسلام أو اليهودية أو النصرانية- أو غيرها من الأديان، وإنما سمى بعضها تمثيلا - لايفلح أحد منهم حق الفلاح الدائم بهذه الأسامي أو بالعرق واللون والحرفة والوطن، وغيرها من الأحوال والخصائص والميزات، وإنما يرجع الفلاح والأمن والوقاية إلى شيء واحد، وهو الإيمان والعمل الصالح. فمن زعم أنه على حظوة من الله تعالى وقرب إليه فليزن نفسه بهذا الميزان والمحك، فإن ارتقى إليه، فقد أفلح ونجا من غير دغدغة وخوف، وإلا فإنه معرض في كل وقت لغضب الله تعالى وقهره سبحانه.

اختصت الآيات السابقة بدعوة أهل الكتاب، وأما هذه الآية الكريمة فتقدم إلى جميع الأمم قانونًا عجيبا منطقيًّا عادلا، لايدع أحدًا سليم الطبع يشك في صدق الإسلام وعمومه وشموله. ومالم يؤمن المرء بالله تعالى – أي وجوده، و وحدانيته، وصفاته الكمالية، ومعالم قدرته، وجميع الأحكام والقوانين، ورسله و أنبيائه- ويوم الدين، ولم يتقبل الصلاح، هل للعقل أن يقول بأنه يحظى بالنعيم الدائم، ومرضاة الله تعالى، و السرور الأبدي؟ والإيمان بالله تعالى يشمل ذلك كله. هَب أن أحدًا يستطيل في عرض نبي من الأنبياء رغم توفر الأدلة الواضحة المنيرة على نبوته – وتكذيبه في دعوى

النبوة يعكس استطالته في عرض النبي- أ فليس النيل من سفير حكومة من الحكومات، وتكذيب أوراق إثباتات رسالته، يمثل إهانة واستطالة في عرض الحكومة نفسها؟ قِس عليه أن من كذب رسولا من الرسل الصادقين، ولم يؤمن به، فقد كذب في الواقع بآيات الله تعالى وأدلته الواضحة الصريحة، التي نزّلها تصديقا لنبوته (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ) [الأنعام:٣٣]. وهل لأحد أن يدعي الإيمان بالله تعالى وهو يكذب آياته الواضحة الصريحة؟وما أشار إليه القرآن الكريم هنا بصورة إجمال من تفاصيل الإيمان بالله تعالى والعمل الصالح قد تعرض له في آيات أخرى بالبسط والتفصيل. و أصوب الأقوال وأقواها عندي أن الصابئة فرقة في العراق، استقت مبادئ دينها في الغالب من الإشراقية و الفلاسفة، وأهل الطبيعة. وكانوا يغلون كثيرًا في الروحانية؛ بل كانوا يعبدونها.

ويرون أنه لايسع المرء الوصول إلى رب الأرباب - أي المعبود الأكبر- إلا بالاستعانة بالأرواح المجردة والمدبرات الفلكية وغيرها، وأنه في غنًى عن اتباع الأنبياء. وكانوا ينحتون هياكل للكواكب ابتغاء مرضاة الأرواح المدبرة وغيرها من الروحانيات. ولأجلها كانوا يصلون و يصومون ويضحون ونحو ذلك. والحاصل أن الصابئة جماعة توازي الحنيفية. وكان أشد هجماتها تتوجه إلى النبوة ولوازمها وخواصها. وكانت قوم نمرود على عهد بعثة إبراهيم الحنيف على عقيدة الصابئة، التي استهات الخليل عليه السلام في الرد عليها وإبطالها.

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾

شرحت الآية السابقة ميزان القبول عند الله تعالى وهو الإيمان والعمل الصالح، وهذه الآية تشرح مدى ارتقاء اليهود إلى هذا الميزان والمحك.

فائدة: واختبار العبد يتمثل في قيامه بما يأمره سيده وإن لم يرغب هو فيه، ويخضع رأيه أو رغبته لمرضاة سيده، وإلا فليس من الكمال في شيء أن يخضع المرء لما تهواه نفسه.

وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

أي نقضوا العهد الموثق، وبغوا على الله تعالى، وقتلوا بعض رسله، وهذا ماكانوا عليه من الإيمان بالله والعمل الصالح. وأما إيمانهم باليوم الآخر فلك أن تقدر ذلك من ارتكابهم لهذه المظالم الشنيعة والجرائم الباغية الطاغية، ثم اطمأنوا إليها، فكأنهم

ظنوا أنهم لايعاقبون على هذه الفعلات الشنيعة. ولا يواجهون أبدًا مغبة ما ولغوا فيه من الظلم والبغي. وانطلاقًا من ذلك عموا عن آيات الله تعالى وكلامه وصموا، وأقبلوا على المحرمات، حتى قتلوا بعض الأنبياء، وسجنوا بعضهم، حتى سلط الله تعالى عليهم بخت نصر ثم أنقذهم بعض ملوك فارس من الذل والهوان الذي ضربه عليهم بخت نصر، ورجع بهم من بابل إلى بيت المقدس. فتابوا وأقبلوا على إصلاح حالهم. فاستجاب الله توبتهم، ثم عادوا إلى شرورهم وفتنهم تلك، فعموا وصموا، ولم يبالوا بقتل زكريا ويحيى عليهما السلام. وتهيؤوا لقتل عيسى عليه السلام.

فائدة: أي أنهم وإن عموا عن غضب الله تعالى وقهره، كان الله تعالى بصيرا بفعلاتهم الشنيعة كلها، فقيض الله تعالى لهم من أمة محمد ﷺ من يذيقهم عقوبة هذه الفعلات.

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾

هذه الآية تشرح حال إيمان النصارى بالله تعالى، ومدى ارتقائهم إلى محك الصدق والحق. فحال إيمانهم بالله تعالى أنهم اتخذوا المسيح بن مريم إلها من دون الله تعالى على خلاف العقل والفطرة السليمة حتى على خلاف تصريحات المسيح نفسه. وليس تخبطهم في الواحد في ثلاثة أو الثلاثة في واحد إلا حيلة منهم، و إنما يركزون في الواقع على تأكيد ألوهية المسيح، في حين اعترف المسيح بدوره جهارًا وعلانيةً بأن الله تعالى هو الرب وأنه هو – المسيح- ليس إلا عبدًا مربوبًا على شاكلة غيره من البشر. أرأيت كيف أنه أكد بكل قوة على فساد الشرك الذي كان سيقع فيه قومه، ثم إن هؤلاء العميان لم يعتبروا به.

لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

يعنون أن المسيح وروح القدس والله تعالى أو أن المسيح ومريم والله تعالى – والعياذ بالله- ثلاثتهم آلهة. والله تعالى شطر من هؤلاء، فكانوا – الثلاثة – واحدًا، والواحد ثلاثةً. هذا ما عليه عامة النصارى من العقيدة، ثم إنهم يعرضون هذه العقيدة بأسلوب مغلوط، وبعبارة معقدة جدًا، فإذا عجز الناس عن إدراكه قالوا: إنه حقيقة لايدركها العقل البشري، وصدق من قال: «لن يصلح العطار ما أفسده الدهر».

أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾

إن الله الغفور الرحيم هو الذي يعفو كلمح بالبصر عن جرائم أمثال هؤلاء البغاة والوقحين إذا ندموا على فعلهم، وعزموا على الإصلاح وأقبلوا على الله تعالى.

مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾

أي أنه- المسيح- واحد من أعضاء هذه الجماعة المعصومة، وأن اتخاذكم إياه إلها سفه وحمق منكم.

فائدة: ذهب جماهير الأمة إلى أنه ليس من النساء نبية، وأن هذه الوظيفة ظلت مختصة بالرجال، قال تعالى: (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ) [يوسف:١٠٩]. وكانت مريم عليها السلام أمة ولية، ولم تكن نبية.

فائدة: يتجلى - عند التأمل- أن المحتاج إلى الطعام والشراب، يحتاج إلى سائر حاجات الدنيا. فلايستغني عن الأرض والهواء والماء والشمس والحيوانات حتى من القاذورات والسماد. أرأيت كم يحتاج إليه الحبةُ مباشرة أو غير مباشرة منذ وصولها إلى البطن، وانهضامها؟ ثم ما ينتهي إليه ما يترتب على تناولها من الآثار والنتائج؟ ونظرًا إلى هذه السلسلة اللامتناهية من الاحتياج والافتقار لنا أن نشرح بطلان ألوهية المسيح ومريم مستدلين على ذلك بأن المسيح ومريم لايستغنيان عن الأكل والشرب، مما يؤكده المشاهدة والتواتر. والذي لايستغني عن الأكل والشرب ليس من شأنه أن يستغني عن شيء من حاجات الدنيا. أفرأيت الذي لايستغني في بقائه مثل سائر البشر- عن عالم الأسباب أنى يكون إلها؟ وهو دليل بالغ من القوة والوضوح ما يستوي في إدراكه وفهمه العالم والجاهل، أي أن الأكل والشرب مما ينافي الألوهية، وإن لم يكن عدم الأكل دليلا على الألوهية، وإلا صار الملائكة كلهم آلهة، والعياذ بالله منه.

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾

أي حين اتخذتم المسيح إلها لزم أن يُعبَد، إلا أن المعبودية تختص بمن يملك الضرر والنفع ملكا تامًا؛ لأن العبادة عبارة عن منتهى التذلل، ولايجوز منتهى التذلل إلا لمن كان على نهاية العز والغلبة، ويسمع كل أحدٍ في كل وقت، ويعلم أحوالهم علمًا تامًا. وهو رد على المشركين كلهم بجانب الرد على التثليث الذي هو عقيدة مشركة.

* * *

* *

أهمية التكافل الاجتماعي في الإسلام

بقلم: الدكتور/ عبد الباسط الغرابلى(*)

المجتمع به كثير من الناس يحتاجون إلى من يمد لهم يد العون في كل مناحي الحياة، وقد هيمن الإسلام في هذا الجانب بمنهجه السمح على النُظُم السياسية، والاقتصادية والاجتماعية، حيث كانت الحياة الجاهلية في غالب حالها لا تساعد ضعيفًا ولا تغيث ملهوفًا، ولا تطعم جائعًا، ولما ضعف الدين في النفوس، وبخل البعض من الناس بمد يد العون والمساعدة، فقد بخلوا على أنفسهم برحمة الله تعالى عليهم.

ولا يخفى على كل ذي لب أن المجتمع الذي يقوم على التعاون والتكافل، ويوجد بين أفراده الإيثار والأخوة، هو مجتمع بناء ومتقدم ومتماسك، لا يستطيع أحد أن يهدمه، ولا تضره نكبات الزمان.

وحينما يطالب الإسلام الناس بالتكافل الاجتماعي فإن ذلك يكون على سبيل الوجوب والإلزام، أو يكون على سبيل الاستحباب والتطوع.

أولًا: ما كان على سبيل الوجوب والإلزام ومن أمثلته:

(أ) الزكاة، وهي ركن من أركان الإسلام، والإسلام حين طبقها نجح في تحقيق وإقامة التكافل الاجتماعي ومحاربة الفقر.

(ب) النذور والكفارات، والنذر قطعه الإنسان على نفسه ويوفى به لمصلحة الفقراء والمحتاجين، والكفارات في قتل الخطإ واليمين والظهار وغير ذلك، وتكون أيضًا في غالب أحوالها لمصلحة الفقراء إطعامًا أو كسوة.

(ج) صدقة الفطر، في رمضان وهي واجبة على كل مسلم تجاه كل فقير ومحتاج.

ثانيًا: ما كان على سبيل التطوع والاستحباب وهو كثير في حياة المسلمين.

أوصانا به القرآن الكريم قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ (المائدة:٢).

ويقول الله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا﴾ (الإسراء:٢٦).

والتكافل في الإسلام معناه أن يلتزم الموسر من أفراد المجتمع تجاه أفراده المحتاجين قال الله تعالى في

(*) إمام وخطيب بوزارة الأوقاف.

وصف أهل الإيمان والصلاح والتقوى والكرم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر:٩).

ولا شك أن في المجتمع حالات كثيرة من البشر تستدعي الوقوف بجانبها، فهذا جائع يحتاج إلى الطعام وذلك مريض يحتاج إلى علاج، وغيره يحتاج للسكن أو الملبس أو الغطاء أو التعليم. ولا يصح للمسلم أن يمنع خيره عن الناس، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ (الماعون:٤-٧).

وقد سئل ابن مسعود عن الماعون فقال: «هو ما يتعاطاه الناس بينهم من الفأس والقدر وأشباه ذلك».

وأوصانا رسول الله بالتكافل فيما بيننا حيث روي أن عبد الله بن عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة» (متفق عليه).

وعن أبي سعيد الخدري قال: بينما نحن في سفر مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ جاء رجل على راحلة له، قال: فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالًا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له، قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل» (أخرجه مسلم برقم ٤٥٣٨).

وقد أكد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسؤولية المجتمع عن كل فرد محتاج فيه وذلك في عبارة شديدة الإنذار واضحة البيان للفرد والمجتمع حيث قال: «ليس المؤمن بالذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه» البخاري في الأدب المفرد.

وكذلك كان الصحابة يتعاونون ويساند بعضهم بعضًا عند الحاجة، ففي عام الرمادة آخر سنة ١٧هـ وأول سنة ١٨هـ في خلافة عمر بن الخطاب حيث اسودت الأرض من قلة المطر حتى عاد لونها شبيها بالرماد، أخرج الطبري من خبر عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال: «كانت الرمادة جوعًا شديدًا أصاب الناس بالمدينة وما حولها، حتى جعلت الوحوش تأوي إلى الإنس وحتى جعل الرجل يذبح الشاة فيعافها من قبحها، وإنه لمقفر» إنها شدة الحاجة والجوع مما جعل الفاروق يقسم ألا يأكل سمنا ولا سمينا حتى تمر هذه الأزمة.

وقال الحافظ ابن كثير: «وقد روينا أن عمر عسَّ المدينة ذات ليلة عام الرمادة فلم يجد أحدًا يضحك، ولا يتحدث الناس في منازلهم على العادة، ولم ير سائلًا يسأل، فسأل عن سبب ذلك فقيل له: يا أمير المؤمنين، إن السُّؤَّال سألوا فلم يعطوا، فقطعوا

السؤال، والناس في هم وضيق فيهم لا يتحدثون ولا يضحكون» انظر البداية والنهاية لابن كثير.

هذا تصوير لحالة لن ينقذ منها شخص إنما يجب أن تتعاون الأمة للخروج من هذه الأزمة، ولذلك كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص في مصر: واغوثاه، واغوثاه، واغوثاه، فقال عمرو بن العاص: والله لأرسلن له قافلة من الأرزاق أولها في المدينة وآخرها عندي في مصر, وفعل ذلك كثير من الولاة في الأمصار وهكذا يكون المسلم عند الأزمات والشدائد يعطي ويساعد ويعين وينصر.

ولقد ضرب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أروع الأمثلة في حب الخير للناس وفي كفالتهم، فها هي قصته مع جابر ابن عبد الله الصحابي الجليل الذي قتل أبوه في معركة أحد، وخلف له سبع أخوات ليس لهن عائل غيره، وخلف دينًا كثيرًا على ظهر هذا الشاب الذي لا يزال في أول شبابه، وكان جابر دائم الفكر منشغل البال بأمر دينه وأخواته، والغرماء يطالبونه صباحًا ومساءً، خرج جابر مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة ذات الرقاع وكان لشدة فقره على جمل كليل ضعيف ما يكاد يسير به، فسبقه الناس وصار هو في آخر القافلة، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسير في آخر الجيش، فأدرك جابرًا وقال له: «ما لك يا جابر؟» قال: يا رسول الله أبطأ بي جملي فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنخه»، فأناخه جابر، ثم قال: «أعطني العصا من يدك، وضرب الجمل بالعصا شيئًا يسيرًا، فنهض الجمل يجري قد امتلأ نشاطًا»، التفت النبي إلى جابر فهو شاب ضحى بمتعته حيث تزول سيدة كبيرة لأجل أخواته، فقال له: «لعلنا إذا أقبلنا إلى المدينة، فتسمع بنا زوجتك، فتفرش لك النمارق فرحًا بك وتبسط فراشها»، فتذكر جابر فقره، وفقر أخواته، فقال: نمارق!! والله يا رسول الله ما عندنا نمارق فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنه ستكون لكم نمارق إن شاء الله، ثم مشيا وقد وهب رسول الله لجابر أربعين درهما» (مسند الإمام أحمد ٣/ ٣٧٢) وهكذا ساعد رسول الله هذا الشاب المسلم وأعطاه ما يبدأ به حياته، وفي المسلمين من يقتدي بالرسول الكريم ويساعد الشباب والأرامل والمحتاجين.

وأعمال الخير تكون في الوقف الخيري الذي هو من الصدقات المستحبة والتي يستمر خيرها ويتجدد ثوابها إلى ما بعد المات. قال ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

وكذلك الوصية وهي أن يوصي المسلم قبل موته بجزء من ماله لجهات البر والخير والعارية وهي الانتفاع بحوائج الغير مجانًا وهبةً؛ كل ذلك لنفع الناس طمعًا في رحمة الله. قال الله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ (النحل:٩٦).

وأسأل الله أن يصلح حال أمتنا وأن نكون على قلب واحد متحابين متناصرين عونا لكل فقير وضعيف ومريض ومحتاج حتى يعم الخير دنيانا، وصل اللّهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

من تـاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ ديوبنـد

(الحلقة ١٠٩)

بقلم: **الأستاذ/ سيد محبوب الرضوي الديوبندي -رحمه اللّه-**
(المتوفى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م)
ترجمة وتعليق: **محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري**(*)

تراجم خريجي دارالعلوم/ديوبند:

٩٥- الشيخ عزير كل رحمه الله:

من سكان قصبة «زيارت كاكا صاحب» في «بيشاور»، تخرج من دارالعلوم/ديوبند عام ١٣٣١هـ، وصار عضوًا ناشطًا في حركة شيخ الهند محمود حسن الديوبندي، قام بأعمال تاريخية هامة كثيرة وعن جدارة كافية. وكان من الأعضاء المتحمسين الفاعلين في حركة شيخ الهند هذه.

وكان إليه الوصول بالرسائل والكتب إلى الحاج ترنغ زئي وغيره من أعضاء الحركة. وكان موضع ثقة شيخ الهند، والأمين على المالية. وغادر إلى الحجاز عام١٣٣٣هـ مع شيخ الهند محمود حسن الديوبندي، وشاركه في الاعتقال في «مالطه»، وفي العودة معه إلى الهند، وكان من الخدم الفدائيين لشيخ الهند. وجاء اسمه في فهرس الجنود الربانيين في مرتبة «القونيل».

وتولى رئاسة «لجنة الخلافة» فرع ديوبند إبان نشوب هذه الحركة. وولي التدريس في المدرسة الرحمانية في مدينة «روركي» قبل الحرب العالمية الثانية. وتزوج إبان نزوله في «روركي» امرأة إنجليزية أسلمت، وكانت مقيمة بالقرب من «روركي» منذ مدة طويلة، وكانت تنتمي إلى العائلة الملكية في «إنكلترا»، وتدرس الإسلام. ورغبة في كشف الشبهات العالقة بقلبها كانت تتردد إلى الشيخ عزير كل، وبعد أن أسلمت ازدادت ميلا إلى التصوف، وأدركت أنها تواجه عقبات في طريق التصوف ما لم تدخل في عصمة أحد، فعرضت مشكلتها هذه على الشيخ عزير، وأبدت رغبتها في زواجها منه. ورضي به الشيخ بعد أن أصرت المرأة على ذلك.

وبعد أن تقسمت الهند غادرها الشيخ عزير إلى بلده «بيشاور» مع زوجته وأولاده، ولازالوا مقيمين بها.

٩٦- الشيخ مناظر أحسن الكيلاني رحمه الله:

الشيخ مناظر أحسن الكيلاني من الدرر النيرة

(*) أستاذ الحديث واللغة العربية وآدابها بالجامعة.

التي أخرجتها أرض ولاية «بيهار» الخصبة. ولد في خؤولته في «أستهانوان» يوم ٩ /ربيع الأول عام ١٣١٠هـ، وتلقى مبادئ العلم على عمه الحكيم السيد أبي النصر في بلده «كيلان»، وكان يغلب على سلفه في العائلة لون العلوم العقلية، ثم أرسِلَ لتلقي المزيد من العلم على الشيخ بركات أحمد في «تونك»، وكان الشيخ بركات من مشاهير علماء المعقول، فقرأ عليه كتب المعقول صغيرها وكبيرها طوال سبع سنوات.

وتوحي التفاصيل التي سردها الشيخ الكيلاني عن دراسته إلى أنه أدرك – بعد أن تلقى العلوم العقلية في «تونك»- أن عالم العلم والحقيقة لايقتصر على ما يراه حوله؛ بل يتعداه إلى غيره، فلابد أن يحصل عليه. فأصر على أبويه بأنه يرغب في التوجه إلى ديوبند، وبما أن كبار عائلته كان يغلبهم اللون الفلسفي، فلم يسمحوا له بالتوجه إلى ديوبند إلا بصعوبة جدا وبعد إصرار مستمر. و وطئت قدماه أرض دارالعلوم/ديوبند وعلى عقله وفكره بصمة واضحة للعلوم العقلية التي كان عليها شيخه بركات أحمد.

والتحق الشيخ الكيلاني بدورة الحديث الشريف في دارالعلوم/ديوبند عام ١٣٣١هـ، واستمر في دورة الحديث عام ١٣٣٢هـ، ونال شهادة الكتب الحديثية في دارالعلوم/ديوبند، وبفضل النفحات العلمية والروحية لأساتذته في دارالعلوم/ ديوبند أمثال شيخ الهند محمود حسن الديوبندي، والعلامة أنورشاه الكشميري، والعلامة شبير أحمد العثماني وغيرهم رحمهم الله تعالى، تحول اتجاهه من المعقولات إلى التفسير والحديث والسلوك والمعرفة. وتزعزت أركان الفكر والنظر التي أقيمت على أنقاض الأسرة والدراسة والمجتمع الذي عاشه.

وبعد ما تخرج الكيلاني ولي نيابة رئاسة تحرير مجلة «القاسم»، ومجلة «الرشيد» بعض المدة. وتبوأ خلال ذلك مكانا بارزًا في الأوساط العلمية ببحوثه العلمية وأسلوبه العامر بالحب والمودة. ويرجع كتابه «ترجمة أبي ذر الغفاري»، وكتاب «الكائنات الروحية» إلى هذا العهد من عمره.

وتم تعيين الشيخ الكيلاني بشفاعة من الشيخ الحافظ محمد أحمد، أستاذًا في الجامعة العثمانية، حتى ترقى إلى رئيس القسم الديني في نهاية المطاف. وقام بالخدمات العلمية في حيدر آباد نحو خمسة وعشرين عامًا، ونشأت العواطف الدينية في كثير من طلبة الجامعة العثمانية بفضل دروسه وتربيته، وصار بعض تلامذته من مشاهير الكُتاب.

ومن مشاهير أعماله: «النبي الخاتم»، و «الدين القيم»، و«قبل ألف عام»، و«نظام التعليم والتربية»[1]. وعلاوة على ذلك خرج من يراعه مئات المقالات والبحوث. ونشرت في الجرائد والمجلات الراقية في البلاد. وما ينفرد به من

الأسلوب المستهام في كتاباته قد ألقى بظلاله على خطبه كذلك، وكان وحيد دهره في العلم والفضل والإكثار من المطالعة، وعمق التفكير، وتدقيق النظر. ويشكل كتابه «نظام المسلمين التعليمي والتربوي في الهند» خزينةً من المواد في موضوعه. درس الشيخ في هذا الكتاب بكل بسط وتفصيل نظام المسلمين التعليمي والتربوي منذ عهد قطب الدين أيبك إلى العصر الحاضر. وما هي العلوم والفنون التي كانت تشكل عناصر النظام التعليمي، وكيف كان أسلوب التعليم والدراسة؟ وكيف كان يتم توفير السكن والطعام للطلاب؟ وكم كانوا يركزون على تربية الطلاب وتزكية نفوسهم بجانب التعليم والتدريس. والحاصل أنه لم يدع ناحيةً من نواحي هذا الموضوع إلا قتلها بحثًا ودراسةً. والكتاب ذو مفعولٍ ومُتعَةٍ.

٩٧- الشيخ عبد الرحمن الكيملفوري رحمه الله:

من سكان «كيمل فور» في «بنجاب». وبها تلقى مبادئ العلوم ثم التحق بجامعة مظاهر علوم/سهارن فور، ثم تخرج في كتب الحديث من دارالعلوم/ديوبند عام ١٣٣٣هـ، وهو من أواخر تلامذة شيخ الهند محمود حسن الديوبندي. كان له تضلع من العلوم العقلية والنقلية. وله نظرة عميقة في علم الحديث. له «إسبال الإزار» كتاب جامع في موضوعه. ولم يشهد الكتاب النورَ بعدُ. ونشر بعض أجزائه في حلقات من مجلة «نظام» الصادرة في مدينة «كانفور».

بعد ما تخرج في العلوم عُيِّنَ مدرسًا في جامعة مظاهر علوم /سهارن فور عام ١٣٣٣هـ، وقام بأعباء التدريس والإفادة بكل نجاح وصيت واسع. وأراد الشيخ خليل أحمد رحمه الله الهجرة إلى المدينة المنورة عام ١٣٤٤هـ، فاستخلفه في رئاسة التدريس في جامعة مظاهر علوم مكانه. ويبلغ عدد تلامذته في الهند وخارجها الآلاف. ولما تقسمت البلاد عام ١٩٤٧م غادر إلى وطنه، وولي مشيخة الحديث في عدد من المدارس العالية في «تندو الله يار»، وفي «ملتان»، وفي الجامعة الإسلامية /أكوره ختك. وقضى نحو نصف قرن من الزمان في تدريس العلوم الدينية والحديث النبوي.

بايع الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله، ونال منه الخلافة. وكان له مكانة سامية في الإرشاد والسلوك بجانب التدريس والإفادة. وقطع كثير من الناس منازل السلوك والطريقة على يديه.

توفي في ١٦/جمادى الآخرة عام ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م في بلده.

٩٨- الشيخ خير محمد الجالندهري رحمه الله:

من سكان «جالندهر» بولاية «بنجاب». ولد عام ١٨٩٥م/١٣١٣هـ. وتلقى دراسته في بلده، وفي مدرسة منبع العلوم/كلاؤتهي. وأكمل الحديث على الشيخ محمد يٰسن في «بريلي». وظل على صلة دائمة مع دارالعلوم/ديوبند. وأنشأ بجهود منه مدرسة

خير المدارس في «جالندهر». وكان من أصحاب الشيخ أشرف علي التهانوي المجازين بالبيعة والإرشاد. وقد اجتمعت فيه الصلاحيات والقدرات العليا من العلم والفضل والزهد والتقوى والدين والتدين. واستفاض آلاف الناس من دروسه وإرشاده وتوجيهه. وظل عضوًا في المجلس الاستشاري بدارالعلوم/ديوبند مدة من الزمان.

وفي عام ١٩٤٧م بعد أن انقسمت البلاد على دولتين تحول من «جالندهر» إلى «ملتان». واستأنف بها مدرسة «خير المدارس»، التي تشكل مدرسة دينية كبرى في باكستان.

ومن أعظم أعمال الشيخ أنه شكَّل وفاقًا للمدارس الدينية في باكستان، سماه «وفاق المدارس»، ونظم المدارس كلها في سلكٍ واحدٍ. وكان الشيخ بدوره رئيسًا لهذا الوفاق. وقد قام بأعبائه بمنتهى الأمانة والإخلاص والصدق، مما أعان على ظهور علمه وفضله للبلاد بجانب كمال فطنته وذكائه. وتعد مدرسة «خير المدارس» اليوم من المدارس المركزية الأساسية في باكستان. وتمتاز بنشر الكتاب والسنة والفقه في الدين.

توفي في شعبان عام ١٣٩٠هـ، في «ملتان».

٩٩- الشيخ شمس الحق الأفغاني رحمه الله:

ولد في عائلة علمية في قصبة «ترنك زئي» في «بيشاور» عام ١٣١٨هـ، وتلقى مبادئ العلم على والده ثم توجه إلى مختلف علماء ولاية «سرحد»، وأفغانستان وتلقى عليهم العلوم العقلية والنقلية، وتضلع منها. ثم التحق بدارالعلوم/ديوبند، وتخرج منها في دورة الحديث الشريف عام ١٣٣٩هـ.

وفاق الشيخ الأفغاني في أيام دراسته معاصريه بشغفه بالعلم والذكاء والفطنة. وبعد ما تخرج من دارالعلوم/ديوبند ولي التدريس سنوات وسنوات في مختلف المدارس: مدرسة الرشاد/لاركانه في السند، ومدرسة مظهر العلوم/كهده في «كراتشي»، ومدرسة دارالفيوض/السند، ومدرسة قاسم العلوم /لاهور وغيرها. وكان له يد طولى في العلوم العقلية بجانب التفسير والحديث. وكان بايع في سلسلة النقشبندية.

واستدعي إلى دارالعلوم/ديوبند عام ١٣٥٤هـ، وأسند إليه تدريس ترجمة القرآن الكريم، والتفسير، والحديث. و في عام ١٣٥٨هـ وُلِّيَ وزارة التعليم في ولاية «قلات»، ثم قدم استقالته منها بعد مدة قليلة، وتوجه إلى الجامعة الإسلامية/ دابيل، وولي رئاسة التدريس بها. وعند ما تقسمت الهند على دولتين عام ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م غادر إلى بلده باكستان. وعُيِّنَ رئيسًا لقسم التفسير في الجامعة الإسلامية/بهاولفور. وبعد أن استقال من الجامعة الإسلامية مكث في بلده. وكانت خطب الشيخ الأفغاني وكتاباته بالأردية على غاية من السلاسة

والجمال. وكان يجمع بين التصنيف الرائع والعلم الجيد. ومن أبرز أعماله: «معين القضاة والمفتين» باللغة العربية، و «المبدأ الشرعي المدني»، و«علوم القرآن»، و«الرقي والإسلام»، و«الشيوعية والإسلام»، و«الإسلام دين الفطرة»، و«الإسلام دين عالمي»، و«أحكام القرآن»، و«مفردات القرآن» وغيرها. وقام بصياغة القوانين المدنية الفقهية كلها في صورة المواد القانونية في كتابه «المبدأ الشرعي المدني». ولقيت هذه الكتب إعجابًا وتقديرًا كبيرين من الأوساط العلمية.

١٠١- الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي رحمه الله:

يعد الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي اليوم من أساطين علماء الحديث في العالم، ولد عام ١٣١٤هـ، تلقى مبادئ العلم في مدرسة دارالعلوم/مئو الشهيرة في بلده «مئو» بمديرية «أعظم كره»، ثم أخذ علوم المرحلة المتوسطة عن الشيخ عبد الغفار الكوركفوري- أحد تلامذة الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي رحمه الله-، وفي بنارس. كما قدم مختلف الاختبارات العربية في العلوم الشرقية ونجح فيها. واجتاز اختبار «شهادة الأدب» في «إله آباد»، واستكمل دورة الحديث الشريف في دارالعلوم/ديوبند.

وبعد أن تخرج في العلوم ولي التدريس في مدرسة مظهر العلوم/بنارس، واستمر في التدريس والإفادة في مظهر العلوم/بنارس حتى أوائل عام ١٣٣٩هـ، وفي نهاية عام ١٣٣٩هـ شارك دورة الحديث الشريف بصورة غير نظامية.

وعُيِّنَ رئيسًا لهيئة التدريس عام ١٣٤٠هـ في مدرسة دارالعلوم/مئو، حيث قام بتدريس كتب المرحلة العليا في دورة الحديث الشريف والفنون الأخرى مدة عامين. ثم اعتزل مدرسة دارالعلوم/مئو، وولي رئاسة التدريس في مدرسة مظهر العلوم/بنارس. وقام بالتدريس بها أعوامًا عدة. ثم عاد إلى بلده «مئو» مرة أخرى عام ١٣٤٧هـ، حيث ولي مشيخة الحديث ورئاسة هيئة التدريس في مدرسة «مفتاح العلوم/مئو». وظل على مشيخة الحديث ورئاسة التدريس بها حتى عام ١٣٦٩هـ، ثم استقال من مدرسة مفتاح العلوم/مئو للتفرغ للأعمال العلمية، وإن ظل مشرفًا عليها. ويقوم الشيخ بخدمات جليلة للعلوم الدينية. وتتلمذ عليه كثير من أهل العلم.

من أعماله العربية والأردية ما يلي:

١- الاستدراك والتعليق على شرح مسند الإمام أحمد بن حنبل.

٢- تعليق وتحقيق كتاب سنن سعيد بن منصور(مجلدان).

٣- تحقيق وتعليق على مسند الحميدي (مجلدان).

٤- تحقيق وتعليق على كتاب الزهد لعبد الله ابن مبارك رحمه الله.

٥- تحقيق وتعليق على كتاب المطالب العالية (٤ مجلدات).

٦- تحقيق وتعليق على مختصر كتاب الترغيب والترهيب لابن حجر العسقلاني.

٧- تحقيق وتعليق على مصنف عبد الرزاق (١١ مجلدا ضخمًا)

هذه الكتب كلها بالعربية. وأما أعماله بالأردية فهي كالتالي:

٨- نصرة الحديث.

٩- الأعلام المرفوعة.

١٠- الأزهار المربوعة.

١١- كلمات أصحاب القلوب الماتعة.

١٢- إرشاد الثقلين.

١٣- الشارع الحقيقي.

١٤- التنقيد السديد على التفسير الجديد.

١٥- تحقيق أهل الحديث.

١٦- دليل الحجاج.

١٧- أحكام الله لأولياء الله.

١٨- إبطال توابيت العزاء.

١٩- أعيان الحجاج.

٢٠- التراويح عشرون ركعة.

وله أعمال أخرى لم تشهد النور بعدُ.

ويحتل مكانة ممتازة في فن الحديث ورجاله وما يتعلق بالحديث، يعترف بها أهل العلم.

وترغب حكومة الكويت منذ أعوام أن يتحول إليها الشيخ، ولكن أعماله العلمية تحول دون ذلك. كما يطالب شيخ جامعة الأزهر بمصر أيضًا أن يتحول الشيخ إليها.

وهو عضو في المجلس الاستشاري بدارالعلوم/ ديوبند منذ عام ١٣٧٣هـ.

==========

(١) وآخر أعماله هو «سوانح قاسمي»- ترجمة الإمام محمد قاسم النانوتوي-الذي ألفه بطلب من الشيخ محمد طيب رئيس دارالعلوم/ديوبند. فقد أرسل الأخير إليه المواد اللازمة، وظل الكيلاني على التواصل مع الشيخ رئيس الجامعة خلال تأليف الكتاب، فخرج بكتاب في ثلاثة مجلدات سماه «سوانح قاسمي». وكان يقول: بدأت عملي بـ«القاسم»، ويبدو أنه ينتهي كذلك بـ«القاسم» أي سوانح قاسمي. وفعلا كان كما بدا له. ولما أتى على المجلدات الثلاثة كتب إليه الشيخ محمد طيب - تقريظا له، ومباركة عليه: «قمت بترتيب ثلاثة مجلدات كتاب «سوانح قاسمي»، وحق لك ذلك. وفي الواقع لم تمس «سوانح قاسمي» بعدُ؛ فإن ترجمته لاتعني بيان مولده ومتى ولد؟ وماذا قام به من الأعمال؟بل الترجمة الصحيحة له تتطلب أن نعمد إلى ما قدمه الشيخ من الحكمة القاسمية للعالم، وهو علم الكلام في هذا العهد، فنقوم بشرحه وبيانه وكشف مبهماته، وقواعده الموضوعية للعالم؛ وبتعبير آخر: التعليق عليه، والتأكيد على أنه كيف أبرز حكم وأسرار الكتاب والسنة في أسلوب برهاني؟ فهلا تقبل عليه، فرد عليه الشيخ الكيلاني وكتب إلى الشيخ محمد طيب: حقا، لقد نبهته على النقطة الأساسية في الترجمة، وها أنا أبدأها الآن، ولم يعد إلا صفحات من هذا المجلد الرابع من ترجمة الإمام النانوتوي حتى جاءه الأجل المحتوم، وكانت نهاية أعماله - كما كان يرى- بالقاسم.

* * *

الذوق في الإسلام

بقلم: الدكتور/ محمد كامل الفقي(*)

الـذوق الـذي يرسـمه الإسـلام ليكـون نـسقًا رفيعـا يـسلكه ذوو البـصيرة والفطنـة، وينتهجـه ذووالحس واليقظة، يدق في معناه، ويرق في مغزاه، حتى يسمو على القوانين، ويجل عن أن تسعه النظم واللوائح، فلا تبلغ من دقائقه وأسراره شيئًا، فهو كـالنور، يـرى ولا يلمس، وكعبق المسك يشم ولا يمس.

ونوهـت بـأن الـذوق الإسـلامي يأخـذ بيـد صـاحبه إلى الـسلوك الرفيـع، فيـصل بـه إلى أرقـى درجات المعاملة، بينه وبين جاره وخادمه، بل بينه وبـين بنـي الإنـسان عامـة؛ بـل بينـه وبـين الحيـوان والطير.

وتتبعنـا مظـاهر هـذا الـذوق الـذي حـرص الإســلام عــلى مؤاخاتــه في جميــع المعــاملات والعبـادات، فهـو – مـثلا – يؤاخيـه ويـصاحبه في فريـضة الـصلاة وفي مقـدماتها مـن دخـول الخـلاء والوضــوء، وغــشيان بيــوت الله، وعــدم تخطــي الرقـاب، واختيـار الثـوب الحـسن، واستحـسان التطيب، وأخذ الزينة عند كل مسجد.

ثـم في مراعـاة الإمـام التخفيـف في الـصلاة فإن فيهم الضعيف والمريض وذا الحاجة. وفي ظلال هذا الـذوق، ومـع الأدب الراقي والتوجيه السديد، يلذ للقلم أن ينوه بحال المائدة روعيت فيها هذه السنن الحميدة، وتلك المنازع الرشيدة.

يـدعو المـؤدب الأعظـم محمـد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الآخذ بيد الناس إلى صراط حميد، أن يغسلوا أيديهم قبل الأكل وبعده، وهـو الـذي يقـول: الوضـوء قبل الطعام ينفي الفقر، وبعده ينفي اللمم، وكـان يأكل بيمينه ويشرب بها، وهـو الـذي قـال: «إن الـشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله».

واعلـم أن الخط ليس كـمالا في حقهـم، بـل هـو مـن جملـة الـصنائع المدنيـة المعاشـية، والكـمال في الـصنائع إضـافي، ولـيس بمكـال مطلـق، إذ لا يعـود نقصه على الذات في الدين ولا في الخلال، وإنما يعود إلى أسباب المعاش وبحسب العمران والتعاون عليه لأجل دلالته على ما في النفوس. وقد كان ﷺ أميا، وكـان ذلك كـمالا في حقه، وبالنسبة إلى مقامه لشرفه

(*) الأستاذ بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر.

وتنزهـه عـن الـصنائع العمليـة التـي هـي أسـباب المعـاش والعمـران كلهـا، وليـست الأميـة كـمالا في حقنا نحن، إذ هو منقطع إلى ربه، ونحن متعاونون على الحياة الدنيا. شأن الصنائع كلها، حتى العلوم الاصطلاحية، فإن الكمال في حقه هو تنزهه عنها جملة بخلافنا. انتهى كلام ابن خلدون.

ورأى ابـن خلـدون فـيما تقـدم مـن كلامـه مـن الوضوح بمكان، وقد لفت نظرنا – بصفة خاصة – مـا أشـار إليـه مـن الـتمحلات التي يلتمسها أنصار الرسـم القـديم تبريـرا لمـا فيه من مخالفة القياس من مثل «لأذبحنه» و«السماء بنيناها بأيد».

ما هو أغرب

وقد اطلعت أنا على ما هو أغرب من ذلك مما يـدخل في بـاب هـذه الـتمحلات. قـال الجعـبري في سياق كلامه عن هجاء المصحف ما نصه «وأعظم فوائده – أي الرسم العثماني – أنه حجاب منع أهل الكتاب أن يقرؤوه على وجهه».

وهذا الكلام واضح البطلان لسببين.

الـسبب الأول أن القـرآن نفـسه يخاطـب أهـل الكتاب في غير موطن منه ﴿قُـلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ.. الخ﴾ فكيف يخاطبهم بكلام لا يتمكنون من قراءته مكتوبا؟

الـسبب الثـاني أن هـذا الرسـم لا يحجـب أهـل الكتاب وحدهم عن قراءة القرآن؛ بل يحجب أعلام المـسلمين عنهـا ممـن لم يتخصـصوا في العلـوم الدينيـة كأطباء المسلمين ومهندسيهم وعلماء الذرة منهم، فإن واحدا من هؤلاء لا يستطيع أن يقرأ سورة من القرآن في المـصحف العـثماني دون أن يكـون وراءه مقـرئ – كالشيخ الحصري – يصحح له أخطاءه، ويهديه إلى الصواب، ولو لم يكن في رسم المصحف طبقا لقواعد الإملاء الحديث إلا تلافي هذا العيب لكفى.

ولا يسعنا قبل أن نختم هـذا الموضـوع إلا أن نقدم لك نماذج مما يختلف فيه الرسم العثماني عن الرسم الإملائي الحديث، حتى تدرك اتساع مسافة الخلف، ومبلغ ما يقع فيه القارئ بدون مقرئ من البلبلة والاضطراب.

وكـان يـشرب مـصا، ولا يتجشأ ولا يتـنفس في الكوب.

وسـن صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألا تبتـدئ بطعـام ومعـك من هو أولى بالتقديم لسن أو لفضل، وألا يقصد أحد قومـا متربـصا لوقـت طعـامهم، فيـدخل عليـهم وقـت أكلهم، فإن ذلك من المفاجأة، وقد نهى عنها ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُـوتَ ٱلنَّـبِيِّ إِلَّآ أَن يُـؤْذَنَ لَـكُمْ إِلَىٰ طَعَـامٍ غَـيْرَ نَـٰظِـرِينَ إِنَىٰـهُ وَلَـٰكِـنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ﴾.

إن الإسلام شرع الاستئذان، وألا ندخل بيوتا غير بيوتنا حتى نستأنس ونسلم على أهلها، وإذا قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم.

وكـان ﷺ إذا دعـي لطعـام وتبعـه أحد أعلم به رب المنزل. وقال: «إن هذا تبعنا، فإن شئت أن تأذن له وإن شئت رجع».

هـذه صـورة للمائـدة التي روعـي فيهـا النسق الإسلامي، والنهج النبوي، لم توضع لها قوانين من حل أو تحريم؛ لكن وضع لها سياج متين من الذوق، لو أتبعه الناس جميعا لصفا سلوكهم من الشوائب، وارتقوا إلى الذروة، ولم يدانهم غيرهم في نهجهم مهما ادعى أنه على حظ من الحضارة والمدنية، وعلى قسط من اللباقة والحكمة عظيم.

لقـد نـادى رجـال مـن بني تمـيم سيدنا محمـدا ﷺ مـن وراء الحجـرات، وقـالوا: اخـرج إلينـا، فـأبى عليهم أدب السماء أن يكونـوا عـلى هـذا النبو وتلك الغلظة في معاملة أكرم الناس على ربه، ومن هو في الأخلاق نسيج وحده.

ونهـــاهم الله إذ نطـــق النبـــي ﷺ ونطقـوا أن يبلغـوا بأصـواتهم وراء الحـد الـذي يبلغـه بصوته. وأمرهم أن يغضوا منها بحيث يكون كلامه عاليا كلامهم، وجهره باهرا لجهرهم، حتى تكون فريته عليهم لائحة، وسابغته واضحة. وحذرهم أن يجهروا له القول إذا كلموه، أو أن يخاطبوه بقولهم يا محمد، يا أحمد؛ بل يخاطبوه بالنبوة كما قيل في بعض مـا قيـل في معنـى قولـه تعـالى ﴿لَّا تَجْعَلُـــوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾.

لقـد سـلكت هـذه الآيـات في عقـد الآيـات المحكمات ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِيـنَ ءَامَنُـوا۟ لَا تَرْفَعُـوٓا۟ أَصْـوَٰتَكُمْ فَـوْقَ صَـوْتِ ٱلنَّـبِىِّ وَلَا تَجْهَـرُوا۟ لَهُۥ بِـٱلْقَوْلِ كَجَهْـرِ بَعْـضِكُمْ لِبَعْـضٍ أَن تَحْـبَطَ أَعْمَـٰلُكُـمْ وَأَنـتُمْ لَا تَـشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِيـنَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِيـنَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْـوَىٰ ۚ لَهُـم مَّغْفِـرَةٌ وَأَجْـرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُـرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُـمْ صَـبَرُوا۟ حَـتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ولمـا كلـم عـروة بـن مسعود الثقفي رسـول الله ﷺ وعروة هذا هو عظيم القرشيين الذي قالت فيه قريش ﴿لَـوْلَا نُـزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُـرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

ويقال: إنه الوليد بن المغيرة المخزومي، فقال المغيرة بن شعبة لعروة. نح يدك عن لحية رسول الله قبل ألا ترجع إليك. فقال عروة: يا غدر[1]«١» وهل غسلت رأسك من غدرتك إلا بالأمس؟

فقد رأى المغيرة أن الذوق الإسلامي والأدب العالي يمنعان أحدا مهما سما قدره، أن يحدث رسول الله ﷺ فيمس لحيته بيده.

إن النـاس يـستطيعون أن يحولـوا مجـتمعهم إلى

[1] زعموا أن المغيرة صحب أناسًا أيام الجاهلية في تجارة إلى مصر، فلما كانوا ببعض الطريق قتلهم وأخذ أموالهم ثم ذهب فأسلم.

نموذج رفيع، لو احتكم كل واحد منهم إلى ذوق الإسلام، وجعل لتوجيهاته من القدسية والتكريم ما للقانون.

ولو أن الناس احتفلوا بهذا الذوق وجعلوه قبلتهم، لرأيت إلى المحبة الشاملة والود الصادق والإخاء الكريم صورا رائعة من حسن المعاملة، وآيات بينات من نبل الأخلاق، وشرف السلوك.

ثم لَوجَدت البيئة الإسلامية مهما ترامت أطرافها قد نقي أسلوبها من القول النابي، والعمل المؤذي، والتصرف السخيف، وساد المسلمين ما سادهم من طهر وملائكية تحول الحياة إلى جنات ونعيم مقيم.

من آثار الذوق الذي نتعلق في هذا الحديث بأهدابه، أن يصعد إلى القطار والسيارة وأشباههما شيخ فان أو امرأة عجوز، أو مريض يتوكأ على نفسه، فيهم ليجلسه من هو على الوقوف أقدر وأصبر.

ومن آثار هذا الذوق أن تميط الأذى عن الطريق، وأن تأخذ بيد الضرير لتجنبه المزالق ومظان الأذى.

ومن آثار هذا الذوق أن لا يقحم من يرتدى ثوب العمل وقد نضح زيتا أو شحما نفسه في غمار الركاب متذرعا بالحرية الشخصية، مدعيا أنه لم يتجاوز الحق الذي كفله له القرش أو الدرهم.

لو اتشح الناس بثوب هذا الذوق أو بحلته الرائعة لما استباح صاحب السيارة أن ينهب بها الطريق، فيثير العواصف، وينشر الفزع، ويهدد الحياة.

ومن الطريف ما قرأته لأشهر الأطباء المعالجين قرحة المعدة، فقد كان في زيارة له في مصر، وسأله أحد الصحفيين عن أهم أسباب هذه القرحة، وكان جواب الطبيب. بوق السيارة، ثم أكد الطبيب أنه لم يستعمل بوق سيارته قط في حياته وأن أخذ نفسه بالهدوء في السير يمنعه استعماله.

إن الإسلام لم يرد من المسلمين، أن يجعلوا سلوكهم في نطاق الحل والحرمة، بل أخذهم مع ما له عنوان في الحل والحرمة بآداب ومنازع، تجمل بها حياتهم، وتصفو بمؤاخاتها مشاربهم، ومن ند عنها وتجافى عن شرعتها، كان إسلامه كالمصباح الذي لا يضيىء، وحسبك أن تنظر إلى الأعمى والمريض، فليست علتهما مسقطة عن سلوكهما أن يكون وفق الذوق، ومع أهدافه، وفي سمته الرفيع.

إنه كلما عظم حظ المسلم من ذوق الإسلام، والتهدي بهديه، والسير على نهجه، والأخذ بآدابه، كان مسلما كاملا راقيا، وصار فيما يأتيه وفيما يدعه، أقرب الناس لأن يكون العظيم المقتدى به، وأصبح في الشرف والعقل من أروع الأمثال.

* * *

حول الإسرائيليات في كتب التفسير

بقلم: الأستاذ/ محمد عزة دروزة – دمشق

في كتب التفسير، وبخاصة المطولة التي تعتمد المأثور، مثل كتب الطبري والبغوي والخازن وابن كثير والقرطبي وغيرهم، على هامش القصص القرآنية والشخصيات والأحداث المذكورة في القرآن على اختلافها، روايات مسهبة بسبيل توضيح جزئيات هذه القصص، والشخصيات والأحداث، وكيفياتها ووقائعها وظروفها، معزوة إلى كعب الأحبار وعبد الله بن سلام، وثعلبة ومحمد القرظيين، وابن جريج وابن نوف وأبناء منبه وغيرهم من مسلمي أهل الكتاب، وبخاصة من مسلمي اليهود، فيها كثير من المبالغات والغلو والصور العجيبة الغريبة. وقد سمى الباحثون هذه الروايات بالإسرائيليات، واعتبروها من دسائس اليهود التي استغفلوا بها الرواة والمشتغلين بتفسير القرآن، وقصدوا إلى التشويش على القرآن وأذهان المسلمين.

والحق أن هذه الروايات التي امتلأت بها كتب التفسير المذكورة وغير المذكورة، والمطبوعة وغير المطبوعة قد استغرقت حيزا كبيرا، إن لم يكن الحيز الأكبر منها، وكادت تغطي على ما في القرآن من مبادئ وأحكام ووصايا هي جوهر القرآن ومحكمه الذي فيه الهدى والذكرى والموعظة والنور والفرقان، حينما يريد المسلم أن يقرأ القرآن مفسرا في كتاب تفسير من تلك الكتب. وحتى كادت تشغل المسلمين وتستغرق تفكيرهم بقصد استقصاء جزئيات القصص والأحداث والشخصيات القرآنية وظروفها الزمانية والمكانية بحيث صارت جل أسئلتهم لمن يشتغل بالقرآن من العلماء عنها، وبحيث صار القول أنها شوشت على القرآن وأهدافه وعلى أذهان المسلمين في محله تماما.

ولقد كان كثير من القصص والشخصيات القرآنية مما ذكر في الكتب والأسفار التي كانت متداولة في أيدي أهل الكتاب واليهود بخاصة الذين كان في أيديهم القسم الأوفر منها والتي وصل طائفة كبيرة منها مما يعرف بأسفار العهد القديم. ولم تكن هذه الكتب والأسفار مترجمة إلى العربية، فكان هؤلاء يذكرون للرواة والأخباريين والسائلين على هامش تلك القصص والشخصيات والأحداث والبيانات فيروونها عنهم بدون تمحيص وانتباه إلى ما فيها من مبالغات وغرائب وعجائب.

ولقد كانوا يعزون – أحيانا كثيرة – ما يقولون إلى الأسفار المتداولة في أيديهم، والتي غالبا ما كانوا يعبرون عنها باسم التوراة. ولم يكن الرواة والمدونون الأولون يعرفون اللغات التي كتبت بها.

ولقد أثر حديث نبوي رواه البخاري عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، و قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ».

كما أثر حديث نبوي آخر رواه البخاري والترمذي عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ جاء فيه (حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار).

ولقد كان جل الذين أسلموا من اليهود من الأحبار والراسخين في العلم كما يستفاد ذلك من آية سورة النساء هذه ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ...﴾.

تعالم اليهود

وكان أحبار اليهود يتعالمون على المسلمين، ويتبجحون بتفوقهم عليهم في المعارف الدينية وغير الدينية مما أشار إليه القرآن في مواضع عديدة مثل آية سورة البقرة هذه ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ (٧٦) وآية سورة البقرة هذه ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ..﴾-٨٩، وآية سورة آل عمران هذه ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾-٧٨، وآيات سورة آل عمران هذه ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ (٧٢-٧٣)، فكان كل هذا مما جعل الرواة والمدونين القدماء يتقبلون أقوالهم وبياناتهم على علاتها ويوردونها في كتبهم، وينقلونها إلى غيرهم، لتكون مادة ومصدرا لمدونين آخرين يأتون بعدهم. وهكذا عمت هذه الروايات معظم كتب التفسير المطولة القديمة دورا بعد دور؛ لأن المتأخرين كانوا ينقلون عن المتقدمين،

بـل وحـذا حـذوهم مؤلفـو الكتـب الحديثـة أيـضًا، وسـميت بالإسرائيليـات؛ لأنهـا مرويـة عـن مسلمي اليهود في الدرجة الأولى.

وفي كتـب التفسير روايـات تفيـد أن المـسلمين كـانوا يسألون أهل الكتاب عـن جزئيات الأحداث والقـصص والشخـصيات والأعـلام القرآنيـة، وأن هذا بدأ منذ الصدر الأول.

ومـن الأمثلـة عـلى ذلـك مـا رواه المفسرون في سياق تفسير آيات ذي القرنين في سورة الكهف عن خلاف وقع بين ابن عباس ومعاوية رضي الله عنهما في قـراءة جملـة (عـين حمئـة) الـواردة في آيـة سـورة الكهف هذه ﴿حَـتَّىٰٓ إِذَا بَلَـغَ مَغۡـرِبَ ٱلـشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَـةٖ﴾ حيث كان معاوية يقرأها (عين حامية) بمعنى نبع ماء حار، وكان ابن عباس يقرأها (عين حمئة) بمعنى طينة سوداء. فاتفقا على تحكيم كعب الأحبار فسألاه كيف تجد الشمس تغرب في التوراة، فقال لهم في طينة سوداء فوافق جوابه كلام ابن عباس.

ومـن ذلـك اختلاف آخـر كـان بـين أبي هريـرة رضي الله عنـه وصـحابي آخـر عـن الـساعة التـي يستجيب الله فيها لعباده من يوم الجمعة التي ورد خبرها في حديث رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عـن أبي هريـرة عـن النبـي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قـال: «فيـه سـاعة لا يوافقهـا عبـد مسلم وهـو قـائم يصلي يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه» حيث اختلفوا فيما إذا كانت الساعة في كل يوم جمعة أو في يوم جمعة في السنة، واتفقوا على تحكيم كعب الأحبار وسألوه فقال: هي جمعة في السنة، فأنكر عليه أبو هريرة ذلك وقـال: بـل هـي في كـل يـوم جمعـة، فراجـع كعـب التـوراة، ثـم عـاد فقـال: إن التـوراة تتوافـق مـع أبي هريرة[1].

والجوابـان – إن صـحت الروايـات – ولـيس هنـاك مـا يمنـع صـحتها – تـدليس؛ لأنـه لـيس في الأسفار شيء مما سئل عنه كعب الأحبار، ولكنهم قبلـوا جوابـه؛ لأنـه لـيس لهـم إلى معرفـة نـصوص الأسـفار مـن سـبيل إلا سـبيلهم. ولأنهـم كـانوا في نظرهم متفوقين عليهم في المعارف المتنوعة، بما كانوا يظهرونـه مـن تعـالم، ومـما كـان متفقـا في ذلـك مـع الحقيقة من حيث إن العرب كانوا أمة أمية كما جاء في أحد أحاديث رسول الله، وكما سماهم القرآن في أكثر من موضع، في حين كان في أيدي أهل الكتاب واليهود خاصة كتب وأسفار دينية كثيرة، بالإضافة إلى أنهـم كـانوا يعيشون في بيئات متحضرة، وكـانوا يساهمون في مختلف مجالات حياتها جيلا بعد جيل، ولأن النبـي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أمـر المـسلمين أن يحـدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، وأن يسمعوا لما يقولونه نسبة إلى التوراة فلا يكذبوهم ولا يصدقوهم على ما جاء في الحديثين اللذين أوردنا نصهما قبلا. ومن ثم تناقلـه الـرواة ثـم دونـه المفـسرون في كتـبهم دون تمحيص ولا تدقيق.

ونـرجح أن جـل مـا روي عـن مـسلمة أهـل الكتاب كان على هذه الصورة، أي أجوبة على أسئلة من المسلمين عن جزئيات الأحداث والشخصيات والأعلام والمسائل القرآنية. منها ما كان يأتي مسهبا، ومنهـا مـا كـان يـأتي مقتـضبا، وأنهـم كـانوا يعـزون أجـوبتهم إلى مـا في أيـديهم مـن الأسـفار فيتقبلـه الـسامعون عـلى علاتـه؛ ويرويـه الـرواة ويدونـه المـدونون، لأنـه لـيس إلى التحقـق مـن صـحته سـبيل بالنسبة للسائلين والرواة والمدونين من أهل القرون الثلاثة الأولى، وإن كـان لا يعني هـذا أنهـم كـانوا لا يفيـضون مـن أنفـسهم مـن بـاب الـشرح والتعليـق المباشرين.

مسؤولية المفسرين

وواضـح مـن هـذا أن مـسؤولية مـا أدت إليـه الإسرائيليات في كتب التفسير من تشويش وإشغال أذهـان وتغطيـة عـلى المبـادئ المحكمـة والأمـور الجوهرية في القرآن لا يتحملها مسلمة أهل الكتاب وحدهم، كما هو قائم في الأذهان، بل ولا النصيب الأوفر منها، وإنما يتحمله الرواة والمدونون القدماء سواء الذين رووا ودونوا أجوبتهم وشروحهم لأول مـرة في كتـب لم تـصل إلينـا، أم الـذين دونوهـا في الكتب التي وصلت إلينا نقلا عن الكتب المتقدمة.

وكلهم مفروض فيه القدرة على تمييز الغث من الـسمين، والباطل من الحق والكذب من الـصدق، وعـلى لمـح مـا في الروايـات مـن غلـو ومبالغـات لا يصح كثير منها في عقل ومنطق وواقع ولا يؤيدها أثر صحيح، ثم القدرة على إدراك ما في رواية هذه الروايات وتدوينها واستغراقها الحيز الكبير أو الحيز الأكبر من الكتب من تشويش على أذهان قارئي هذه الكتب، وأهداف القرآن في آياته المحكمات، والقدرة على كـون هـذه دون تلك هي الجوهرية التي يجب الاهتمام لإبرازها وتجليتها، والتنبيه على ما فيها من حكم وأهداف جليلة لصلاح الإنسان والإنسانية في الـدنيا والآخـرة، وكـون تلـك لم تـورد لـذاتها وإنـما أوردت بالأسـلوب الـذي اقتـضت حكمـة التنزيـل ورودها بـه للتمثيـل والتـذكير والترغيـب والترهيـب والعــبرة والموعظــة لتكــون وســائل تدعيميــة للمحكـمات وأهـدافها، ممـا تقـوم عليـه الـدلائل القطعيـة مـن سـياقها وعبارتهـا وتكررهـا بأسـاليب يختلـف بعـضها عـن بعـض قلـيلا أو كثـيرا، بقـصد اسـتكمال الهـدف منهـا، وكـون الواجـب أن يوقـف عنـدما اقتـضت حكمـة التنزيـل منهـا، دون تزيـد لاطائل من ورائه بالنسبة لما استهدف منها، ولكونها ليست مما يجب علمه دينا.

وقـد يكـون هنـاك بعـض مفـسرين وقفـوا مـن بعض هذه الروايات موقف الناقد المنكر لما يصادفه المطلعون على كتب التفسير وبخاصة المتأخرة قليلا أو كثيرا، التي تسنى لمؤلفيها الاطلاع على الأسفار بعـد أن ترجمـت وعُـرِف مقـدار مـا فيهـا مـن تهافـت ومغايرة وتحريف وتخريف. غير أن الحق يقتضينا أن

نقول: إن هذا لم يكن شاملا ولا عاما، وإن الناقدين والمفكـرين أنفـسهم رووا كثـيرا منهـا في مناسـبات كثيرة بـدون نقـد وإنكـار في حـين أنهـا لا تتوافـق مـع الأسـفار وكثـير منهـا لـيس بينـه وبـين هـذه الأسـفار صلة..

أمثلة كثيرة

وننبه على أن في كتب التفسير القديمة بيانات مـسهبة حـول القـصص والشخـصيات والأعـلام والأحـداث القرآنيـة معـزوة إلى بعـض أصـحاب رسول الله وتابعيهم من غير مسلمي أهل الكتاب مثل عبـد الله بـن مسعود وابـن عبـاس وأبي هريـرة وأبي ذر وعبـد الله بـن جـابر ومـسروق ومجاهـد وعكرمة والحسن والضحاك وسعيد بن جبير وزيد بن أسلم وعطاء وطاووس وابن اسحاق وغيرهم فيها ما يماثل ما روي حول القصص والشخصيات والأعلام والأحداث القرآنية من إغراب ومبالغة وخيال وبعد عن المنطق والعقل والإمكان.

ومنها ما رووه بصيغة أحاديث نبوية غير واردة في كتـاب الأحاديـث المعتـبرة بحيـث تكـون تـسمية البيانات جميعها بالإسرائيليات ليس صحيحا، وإنما هو من قبيل التغليب.

ومـن هـذه البيانـات مـا هـو حـول قـصص وشخصيات وأعلام وأحداث قرآنية ليست واردة في أسفار أهل الكتاب وبخاصة أسفار العهد القديم مثل قـصص هـود وقومـه عـاد في الأحقـاف. وتبـع وصـالح وقومـه ثمـود في الحجـر وشـعيب وقومـه في مدين. وأصحاب الأيكة وأهل الرس، ولقمان وذي القرنين وأصحاب الكهف وغير ذلك مما هو عربي أو غـير إسرائـيلي بالإضـافة إلى البيانـات التـي تـساق على هامش قصص إبراهيم عليه السلام التي لم تذكر في الأسفار.

والأمثلة على ذلك مما يطيل المقال ولكنا رأينا أن نختار بعضا من غير المسهب.

فمن ذلك ما يروى عن قتادة في سياق إنشاء إبراهيم بيت الله مع إسماعيل (إن الله وضع البيت مع آدم حينما أهبطه إلى الأرض، وكان مهبطه بأرض الهنـد، وكـان رأسـه في الـسماء، ورجـلاه في الأرض. فكانت الملائكة تهابه فنقص إلى ستين ذراعا، فحزن آدم إذ فقد أصوات الملائكة وتسبيحهم، فشكا ذلك إلى الله عزوجل فقال له يا آدم: إني أهبطت لك بيتا تطوف به كما يطاف حول عرشي، وتصلي عنده كما يصلى عند عرشي. فانطلق إليه آدم فخرج ومد له في خطوه فكان بين كل خطوتين مفازة، فأتى آدم البيت في مكة، فطاف به ومن بعده من الأنبياء)[٢].

ومن ذلك ما يروى عن السدي عن زيد بن أسلم في سياق المناظرة بين إبراهيم عليه السلام والملك نمرود قال: كان عند النمرود طعام وكان الناس يفدون إليه للميرة، فوفد إبراهيم في جملة من وفـد للمـيرة، فكـان بينهما هـذه المنـاظرة، ولم يعـط إبـراهيم مـن الطعـام كـما أعطـي النـاس، بـل خـرج

وليس معه شيء من الطعام، فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب فملأ منه عدلين، وقال أشغل أهلي عني إذا قدمت إليهم، فلما قدم وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام، فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملآنين طعاما طيبا، فعملت طعاما فلما استيقظ إبراهيم وجد الذي قد أصلحوه فقال: أنى لكم هذا؟ قالت: من الذي جئت به، فعلم أنه رزق من عند الله عز وجل. قال زيد بن أسلم وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكا يأمره بالإيمان بالله فأبى، ثم دعاه الثانية فأبى، ثم الثالثة فأبى وقال: اجمع جموعك واجمع جموعي، فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس، فأرسل الله عليهم البعوض بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عليهم، فأكلت لحومهم ودماءهم، وتركتهم عظاما بادية، ودخلت واحدة منها في منخري الملك فمكثت فيهما أربع مئة سنة يعذبه الله بها، حتى كان يضرب رأسه بالمرزبة في هذه المدة حتى أهلكه الله بها[٣]. على أن هناك وجها آخر لهذه المسألة. فنحن لا نعتقد أن هذه البيانات العجيبة الغريبة، وسواء منها ما روي عن أصحاب رسول الله وتابعيهم من غير مسلمي أهل الكتاب، أم ما روي عن مسلمي أهل الكتاب، ليست مخترعة من قبل الذين أوردوها جوابا عن سؤال أو توضيحا لمسألة من المسائل، أو قصة من القصص، لأن هذا يقتضي أن يكونوا جميعهم كذابين مفترين. ونحن ننزههم عن ذلك، ونرجح أن هذه البيانات مما كان متداولا في بيئتهم. ومن المحتمل جدا أن تكون واردة في كتب وقراطيس لم تصل إلينا.

أخبار انفرد بها القرآن

وفي القرآن أخبار عن بعض الأنبياء والأمم والأحداث والأشخاص الذين وردت أسماؤهم في الأسفار المتداولة اليوم ليست واردة في هذه الأسفار، مثل المحاورة بين الله والملائكة في صدر خلق آدم وخلافته. وأمر الله الملائكة بالسجود له، وامتناع إبليس، وتخلف أحد أبناء نوح عن الركوب في السفينة وغرقه، وتوبة آدم وقبولها من الله، وقصص إبراهيم مع أبيه وقومه، وإسكان إبراهيم بعض ذريته في منطقة المسجد الحرام، وبنائه البيت هو وإسماعيل، وإيمان سحرة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وصنع داود للدروع، وحكومة داود وسليمان في الحرث الذي نفشت فيه غنم القوم. وتسخير الخيل والطير لداود، وتسخير الجن والريح والطير لسليمان، وبناء الجن له التماثيل والمحاريب وغوصهم له وتقييده إياهم بالأغلال وقصة الهدهد وملكة سبا وعرشها، والصرح الممرد من القوارير. وإحضار الذي عنده العلم عرشها في لمح البصر، والجسد الملقى على عرشه، والصافنات الجياد، وكلام عيسى عن النبي، وبشارته وصفات النبي الصريحة في التوراة والإنجيل[٤] ومائدة عيسى وكلامه في المهد، وغير ذلك كثير.

هذا بالإضافة إلى ورود أشياء كثيرة في القرآن مغايرة قليلا أو كثيرا لما ورد في الأسفار، مثل نسبته صنع العجل للسامري في القرآن بدلا من هارون في الأسفار، وشق قميص يوسف وهمه بامرأة العزيز، ومثل ما جاء مباينا لما جاء في القرآن في قصص يونس وأيوب وزكريا ومريم وأمها وغير ذلك كثير أيضا. فنحن نرجح؛ بل نعتقد أنه كانت هناك أسفار وقراطيس لم يصل إلينا فيها ما هو المتطابق مع ما جاء في القرآن، سواء في ذلك ما لم يذكر في الأسفار المتداولة اليوم بالمرة، وما ذكر مباينا لما جاء في القرآن، وأنه كان في هذه الأسفار والقراطيس التي لم تصل إلينا كثير من البيانات التي تروى عن مسلمي أهل الكتاب، وعن بعض أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتابعيهم من غير مسلمي أهل الكتاب.

وفي الأسفار المتداولة اليوم ذكر لأسفار عديدة من عهد موسى ويوشع وداود وسليمان وغيرهم ليست بين الأسفار المتداولة اليوم. من جملتها توراة موسى التي كتبها بيده، ودون فيها تبليغات الله تعالى ووصاياه، والألواح ومدونة وصفت بالنشيد الرباني، وأسفار عديدة أخرى: مثل أسفار ياشر وعدي واخيلو وشيلو، وأخبار أيام كل ملك من ملوك إسرائيل ويهوذا إلخ مما يمكن أن يكون مثالا يقاس عليه.

على أن هذا الوجه من المسألة ليس من شأنه أن يخفف من قولنا بمسؤولية الرواة والمدونين الأولين، ومن نقل عنهم بعدهم جيلا بعد جيل عن رواية وتدوين، ونقل تلك البيانات والروايات الغريبة العجيبة وإشغال الحيز الكبير من كتب التفسير بها، وما أدت إليه من تشويش الأذهان والتغطية على محكم القرآن، لأن ورودها المفروض في كتب وقراطيس لا يبرر إيرادها في كتب التفسير على علاتها. لأن لهم القدرة على إدراك ولمح ما في إيرادها على علاتها من مأخذ، والقدرة على إدراك عدم ضرورة إيرادها وكونها تزيدا في شؤون لم تكن من أهدافها القرآنية حينما اقتضت حكمة التنزيل ايرادها في القرآن بالأسلوب الذي وردت به، وكونها ليست مما يجب علمه دينا، وكون الواجب أن يوقف عندما اقتضت حكمة التنزيل إيراده.

* * *

الهوامش:

(١) في كتب التفسير أمثلة مماثلة كثيرة فاكتفينا بهذين المثالين تفاديا من التطويل الذي قد لا تتسع له المجلة.

(٢) انظر تفسير ابن كثير لآيات سورة البقرة.

(٣) من تفسير ابن كثير نكتفي بهذين المثالين اللذين لم نخترهما لأنهما أغرب من غيرهما فهناك ما يفوقهما غرابة.

(٤) صفات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واسمه الصريح أحمد ومحمد، والبشارة به على لسان عيسى عليه السلام – ورد كل ذلك في إنجيل «برنابا» المطبوع بدار المنار بالقاهرة... (الوعي).

* * *

أمسك عليك لسانك

بقلم: **الأستاذ محمد رضوان القاسمي**(*)

لقد أنعم الله تعالى على الإنسان بما لا يعدّ ولا يحصى من النّعم العظيمة والآلاء الجسيمة، الظاهرة منها والباطنة، فقال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ (إبراهيم:٣٤) وقال: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾ (لقمان:٢٠). ومن أهمّ النعم التي ميّز الله بها الإنسان عن غيره من الحيوانات والمخلوقات، والتي تستوجب منه حمدًا وشكرًا لله تعالى نعمةُ اللسان والبيان؛ فبها يعبّر عما يجيش في نفسه من مشاعر الفرح والحزن وعواطف المحبة والتقدير، وبها يعبّر عن أفكاره وأخْيلته وآرائه، وقد امتنّ الله تعالى عليه بهذه النّعمة قائلًا: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ۝٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ (البلد: ٨-١٠) وقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ (الرحمن: ١-٤)

ولكنّ قيمة هذه النعمة تكون بحسن استخدامها والاستفادة منها، بأن يستخدمها الإنسان في الخير: من تلاوة القرآن وذكر الله تعالى والتسبيح بحمده، وتعلّم العلم النّافع وتعليمه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإصلاح بين الناس، والتأليف بين قلوبهم، وما يعود عليه بالنفع في الدنيا والآخرة؛ وإلا فإنّها قد تنقلب إلى مشكلةٍ لصاحبها عند ما يستخدمها في الشرّ: من الكذب والغيبة والنميمة، والفتنة بين الناس والتفريق بينهم، وانتهاك أعراضهم، وتأييد الظالم وغير ذلك مما حرّمه الله ورسوله. قال الله تعالى: ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾ (النور: ١٤-١٥) وقال: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ (ق:١٨)

فهذا اللسان لاجرَم أنّه نعمةٌ إلهيّة عظيمة؛ ولكنّه في نفس الوقت نقمةٌ ومشكلة لصاحبها بحيث يمكن أن يكون مصدر الخطايا والذنوب، وأن يهبط بالإنسان إلى أسفل السافلين ويجرّه إلى الحضيض، كما ورد عن النّبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- أنّه قال: إنّ العبد ليتكلّم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقي لها بالًا يَرفَعُ الله بها درجات، وإنّ العبد ليتكلّم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا يهوي بها في

(*) الأستاذ بالجامعة الإسلامية العربية بجامع أمروهة.

جهنّم[1]. وقال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إنّ الرجل ليتكلّم بالكلمة من رضوان الله ما كان يظنّ أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإنّ الرجل ليتكلّم بالكلمة من سخط الله ما كان يظنّ أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه[2].

وإنّ هذا اللسان الذي هو وسيلة التعبير عن النفس وسبيل التفاهم بين الناس سلاحٌ ذوحدّين؛ فإن استقام وصدر عنه الخير والصلاح والعفو والإحسان، استقامت الجوارح كلّها، وإن زاغ فقد زاغت كلّها؛ فهي كلّها تصدر عنه في استقامتها واعوجاجها، ولذلك تخاطبه برعاية أعمالها وخيراتها؛ بل تخضع وتذلّ له كلَّ يوم إذا أصبح الإنسان. كما روي عن أبي سعيد الخدريّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنّه قال: إذا أصبح ابن آدم فإنّ الأعضاء كلّها تكفّر اللسان، فتقول: اتّق الله فينا فإنّما نحن بك! فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا[3].

فنظرًا لخطورة اللسان وضرره لقد أكّدت الشريعة الإسلامية على حفظ اللسان والعناية بحسن المنطق؛ بل جعل النّبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ذلك أهمّ الأمور لمّا سأله معاذ بن جبل -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قائلًا: يا نبيّ الله، أخبرني بعملٍ يدخلني الجنة، ويباعدني من النار! فقال: لقد سألتَ عن عظيم، وإنّه ليسيرٌ على من يسّره الله عليه، ثم أخبره بأركان الدين وبعض شعائره. ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ فقلت: بلى يا رسول الله! قال: رأس الأمر الإسلام وعمودُه: الصّلاة، وذروة سنامه: الجهاد، ثمّ قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كلّه؟ فقلت له: بلى يا رسول الله! فأخذ بلسانه، فقال: «كفّ عليك هذا»، فقلت: يا رسول الله! وإنّا لمؤاخذون بما نتكلّم به؟ فقال: ثكلتْك أمّك يا معاذ، وهل يكبّ الناس في النار على وجوههم، أو قال: على مناخرهم، إلا حصائد ألسنتهم![4].

قال العلاّمة ابن رجب الحنبلي: «المراد بحصائد الألسنة جزاء الكلام المحرَّم وعقوباته؛ فإنّ الإنسان يزرع بقوله وعمله الحسنات والسيّئات، ثمّ يحصد يوم القيامة ما زرع، فمن زرع خيرًا من قول أو عمل حصد الكرامة، ومن زرع شرًّا من قول أو عمل حصد غدًا النّدامة. وظاهر الحديث يدلّ على أنّ أكثر ما يدخل به النّاس النّار النطق بألسنتهم؛ فإنّ معصية النّطق يدخل فيها الشّرك وهي أعظم الذنوب عند الله عزّ وجل، ويدخل فيها القول على الله بغير علم، وهو قرين الشّرك، ويدخل فيها شهادة الزّور التي عدلت الإشراك بالله عزّ وجل، ويدخل فيها السّحر والقذف وغير ذلك من الكبائر والصغائر؛ كالكذب والغيبة والنّميمة، وسائر المعاصي الفعليّة لا يخلو غالبًا من قول يقترن بها يكون معينًا عليها»[5].

وقال الشاعر:

احفظْ لسانك أيّها الإنسانُ
لا يلـدغنَّك إنّـــه ثعبانُ
كم في المقابر من قتيل لسانه
كانت تهاب لقاءَه الشجعانُ
بل ما يكبّ النّاسَ في قعر لظى
إلا حصائده؛ فهل يقظانُ
يصغي لما يلقى إليه فيحذرن
من قبل ما يسْتهوه الشيطانُ
من كان يؤمن بالإله فلا يقل
إلا الذي يرضى به الرّحمنُ

وإنّ العبد الصالح ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها، وهو المفلس الحقيقيّ في التعبير النبويّ، الذي قد أجهد نفسَه في الحياة الدنيويّة في جمع الأعمال الصالحة من صلاةٍ وصيام وزكاة، وإذا كان يوم القيامة شاهدها وهو في أمسّ الحاجة إليها تؤخذ منه إلى هذا وإلى ذاك، فيخسرها كلّها؛ فقد روي عن أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «أتدرون ما المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «إنّ المفلس من أمّتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»[٦].

ومن أعظم آفات اللّسان وأخطرها: الغيبة والنميمة، وإنّ هاتين الخصلتين من أقبح القبائح وأكثرها انتشارًا في الناس، حتى ما يسلمُ منهما حتى الخواصّ منهم، فالغيبة صفة ذميمة، ولقدعرَّفها النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بقوله في حديث أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهتَّه[٧].

فالغيبة هي ذكرُك الإنسانَ بما فيه ممّا يكره، سواء كان في بدنه أو دينه أو دنياه أو نفسه، أو خَلقه أو خُلقه، أو ماله أو ولده أو والده أو زوجه، أو خادمه أو مملوكه، أو عمامته أو ثوبه، أو مشيته وحركته، وبشاشته، وعبوسه وطلاقته، أو غير ذلك ممّا يتعلّق به، سواء ذكرتَه بلفظك أو كتابك، أو رمزتَ أو أشرتَ إليه بعينك أو يدك أو رأسك أو نحو ذلك. وضابطُه: «ذكرُه بما يكره». وقد نقل الإمام الغزالي إجماع المسلمين على أنّ الغيبة: ذكرُك غيرَك بما يكرَهُ. وأمّا النّميمة: فهي نقلُ كلام الناس بعضِهم إلى بعضٍ على جهةِ الإفساد[٨].

والغيبة لا تختصّ باللسان، فحيثُ ما أفهمتَ الغيرَ ما يكرهه المغتابُ ولو بالتعريض أو الفعل، أو الإشارة أو الغمز أو اللمز، أو الكتابة، وكذا سائر ما يتوصّل به إلى المقصود؛ كأن يمشي مشيه فهو غيبة؛

بـل هـو أعظـم مـن الغيبـة؛ لأنـه أعظـم وأبلـغ في التّصوير والتفهيم(٩).

وأمّا تحريمهما فلا يخفى على أحدٍ، وقد تظاهرَ على تحريمهما الدلائلُ الصريحةُ من الكتاب والسنّة وإجماع الأمّة. قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحجرات:١٢) وقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (الهمزة:١) وقال: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ (القلم:١١)

وعن عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- قالتْ: قلتُ للنّبيّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: حَسْبُكَ من صفيَّةَ كذا وكذا، (قال الرّاوي): تعْني قصيرةً، فقال: «لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ»، قالت: وحكيتُ له إنسانًا، فقال: «مَا أُحِبُّ أَنِّي حَكَيْتُ إِنْسَانًا وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا»(١٠).

قال الإمام النووي: «مَزَجَتْهُ: أي خالطته مخالطةً يتغيّر بها طعمُه أو ريحُه لشدّة نتنها وقبحها، وهذا الحديث من أعظم الزّواجر عن الغيبة أو أعظمها، وما أعلم شيئًا من الأحاديث يبلغُ في الذمّ لها هذا المبلغ(١١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من بعض حيطان المدينة، فسمع صوت إنسانين يعذَّبان في قبريهما فقال: يعذَّبان، وما يعذَّبان في كبيرٍ، وإنّه لكبير: كان أحدهما لا يستتر من البول، وكان الآخر يمشي بالنّميمة(١٢). وعن أبي برزة الأسلمي -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمانُ قلبَهُ، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتَّبعوا عوراتِهم؛ فإنه من اتّبعَ عوراتِهمْ يتّبع الله عورتَهُ، ومن يتبعِ الله عورته، يفضحْهُ في بيته(١٣). وعن سعيد بن زيد -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: إنّ من أربى الرِّبا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق(١٤). وعن أنس بن مالك -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: لمّا عُرج بي مررت بقومٍ لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم، وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم(١٥).

وما ذكرناه من نصوص في تحريم الغيبة والنميمة غيضٌ من فيضٍ، ولهذا الباب أدلّة كثيرةٌ في الكتاب والسنّة. قال الإمام النّووي: «اعلم أنّ الغيبة كما يحرم على المغتاب ذكرها، يحرم على السامع استماعها وإقرارها؛ فيجب على من سمع إنسانًا يبتدئ بغيبة محرّمةٍ أن ينهاه إن لم يَخَفْ ضررًا ظاهرًا، فإن خافه وجب عليه الإنكارُ بقلبه ومفارقةُ ذلك المجلس إن تمكّن من مفارقته، فإن قدر على الإنكار بلسانه أو على قطع الغيبة بكلامٍ آخر لزمه ذلك، إن لم يفعل عصى، فإن قال بلسانه: اسكتْ وهو يشتهي

بقلبه استمراره، فقال أبو حامد الغزالي: ذلك نفاقٌ لا يخرجُه عن الإثم، ولا بدّ من كراهته بقلبه، ومتى اضطرّ إلى المقام في ذلك المجلس الذي فيه الغيبة، وعجز عن الإنكار، أو أنكر فلم يُقبل منه ولم يُمكنه المفارقة بطريقٍ حرم عليه الاستماع والإصغاء للغيبة؛ بل طريقه أن يذكرَ الله تعالى بلسانه أو بقلبه، أو يفكّر في أمرٍ آخر ليشتغل عن استماعها، ولا يضرّه بعد ذلك السّماع من غير استماع وإصغاء في هذه الحالة المذكورة؛ فإن تمكّن بعد ذلك من المفارقة وهم مستمرّون في الغيبة ونحوها وجب عليه المفارقة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنعام:٦٨)[١٦].

و قال الإمام رحمه الله: اعلم أنّه لكلّ مكلّف أن يحفظَ لسانَه عن جميع الكلام إلا كلامًا تظهرُ المصلحة فيه، ومتى استوى الكلامُ وتركُه في المصلحة، فالسنّة الإمساك عنه؛ لأنه قد ينجرّ الكلام المباح إلى حرامٍ أو مكروهٍ؛ بل هذا كثيرٌ أو غالب في العادة، والسلامة لا يعدلها شيء[١٧].

وقد قال النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: من يضمن لي ما بين لحييه، وما بين رجليه أضمن له الجنة[١٨].

وقال -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه[١٩]. ولما سأل عقبة بن عامر -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-: يا رسول الله، ما النجاة؟ فقال -ﷺ-: أمسك عليك لسانك، وليسعْك بيتُكَ، وابكِ على خطيئتك[٢٠].

ولقد وصف الله تعالى أهل الإيمان وأصحاب التقوى، بالإعراض عن اللّغو ومجانبة الباطل من القول، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون:٣) وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (القصص:٥٥) وقال: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ (الفرقان:٧٢)

فالصحابة -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ- والسلف الصالح كانوا يكفّون ألسنتهم عمّا لا يعنيهم، ويُطْلقونها فيما يعود عليهم نفعُه في الآخرة؛ فلن تجد أحدًا منهم يتكلّم بكلمة تذهب عليه ضائعةً بدون منفعةٍ؛ فضلًا أن تضرّه في آخرته. والآثار عنهم في هذا الباب كثيرةٌ، وبعض منها فيما يلي:

* حدّث مالك عن زيد بن أسلم عن أبيه أنّ عمر بن الخطاب -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- دخل على أبي بكر -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- وهو يجبذ لسانه، فقال له عمر: مَهْ، غفر الله لك، فقال أبو بكر: «إنّ هذا أوردني الموارد»[٢١].

* وقال ابن بريدة: رأيت ابن عبّاس رضي الله عنهما آخذًا بلسانه وهو يقول: ويحك! قل خيرًا تغنم، أو اسكت عن سوءٍ تسلم؛ وإلا فاعلم أنك

ستندم، فقيل له: يا ابن عباس لِمَ تقول هذا؟ قال: إنّه بلغني أنّ الإنسان - أراه قال -: ليس على شيءٍ من جسده أشدّ حنقًا وغيظًا يوم القيامة منه على لسانه، إلا ما قال خيرًا أو أملى به خيرًا.

* وكان ابن مسعود -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يحلف بالله الذي لا إله إلا هو، ما على الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من لساني(٢٢).

* وكان أبو الدرداء -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يقول: أنصفْ أذنيك من فيك، فإنّما جُعل لك أذنان اثنتان وفم واحد، تسمع أكثر ممّا تقول(٢٣).

* وقال الإمامُ الشافعيُّ رحمه الله لصاحبه الرَّبِيع بن سليمان: يا ربيعُ لا تتكلّم فيما لا يعنيك، فإنك إذا تكلَّمتَ بالكلمة ملكتكَ ولم تملكها(٢٤).

* واجتمع قسّ بن ساعدة وأكثم بن صيفي، فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟ فقال: هي أكثر من أن تُحصى، والذي أحصيتُه ثمانيةُ آلاف عيب، ووجدتُ خصلةً إن استعملتها سترتَ العيوبَ كلَّها، قال: ما هي: قال: «حفظ اللسان»(٢٥).

* وكان إبراهيم بن أدهم -رَحِمَهُ اللَّهُ- يطيل السكوت، فإذا تكلّم ربما انبسط قال: فأطال ذات يومٍ السّكوت، فقلت: لو تكلّمت، فقال: الكلام على أربعة وجوه: فمن الكلام كلامٌ ترجو منفعته وتخشى عاقبته، والفضل في هذا السلامة منه، ومن الكلام كلام لا ترجو منفعته ولا تخشى عاقبته، فأقلّ ما لك في تركه خفّة المؤنة على بدنك ولسانك، ومن الكلام كلام لا ترجو منفعته ولا تأمن عاقبته، فهذا قد كفى العاقل مؤنته، ومن الكلام كلام ترجو منفعته وتأمن عاقبته فهذا الذي يجب عليك نشره(٢٦).

إنّها أقوال السلف الصالح - رحمهم الله تعالى - وأحوالهم فيما يتعلّق بحفظ اللسان وضبطِه؛ ولكنّنا إذا استعرضنا اليوم بيوتنا ومجالسنا، وجدناها عامرة بالغيبة والنّميمة، والوقوعِ في أعراض الناس والتفكّه بلحومهم، والاستهزاء والازدراء، والأقوال العريضة والمظاهر الفارغة؛ إلا من رحم ربك. فنحن نتناول هذه الفاكهة المجلسيّة المسمومة المحرّمة، ونمتصّها ونجترّها ليلا ونهارًا، ولا نشعر بخطورتها وعاقبتها. وممّا يثير العجب أنّنا كما نحرص على اجتناب أكل الحرام، والظلم، والزّنا، والسرقة، وشرب الخمر، وغير ذلك من المحرّمات، لا نحرص على حفظ اللسان مما حرّمه الله ورسوله؛ فيقول الإمام ابن القيم:

«ومن العجب أنّ الإنسان يهون عليه التحفّظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزّنا والسّرقة وشرب الخمر، ومن النظر المحرّم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفّظ من حركة لسانه، حتى ترى الرّجل يشار إليه بالدّين والزّهد والعبادة، وهو يتكلّم بالكلمات من سخط الله لا يلقي لها بالًا، ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب،

وكم ترى من رجلٍ متورّع عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول»(٢٧).

نسأل الله تعالى أن يُعيننا على صون ألستنا عن الغيبة والنّميمة والهمز واللّمز، واللّغو من الكلام، وعن كلّ ما لايُرضيه قوله، ويجعل ألسنتنا تلهج بذكره والتّسبيح بحمده وتلاوة كتابه، ويجعل مجالسنا عامرةً بالإيمان والخير، ومذاكرة العلم ومباحثته، ويجعلنا ممّن يستمعون القول ويتّبعون أحسنه.

***

الهوامش:

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، برقم ٦٤٧٨، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار، برقم ٤٩ - ٢٩٨٨.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، برقم ٦٤٧٨، والترمذي، كتاب الزهد، باب في قلة الكلام، برقم ٢٣١٩، والنسائي في الكبرى، كتاب الرقائق، برقم ١١٧٦٩، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، برقم ٣٩٦٩، و٣٩٧٠.

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان، برقم ٢٤٠٧،.

(٤) أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، برقم ٢٦١٦،وأخرجه ابن ماجه: ٣٩٧٣، والنسائي في الكبرى: (١١٣٩٤)، والبيهقي في الشعب: (٣٣٥٠)

(٥) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، لابن رجب الحنبلي، ١٤٧/٢، ط: بيروت.

(٦) أخرجه مسلم، برقم: ٢٥٨١.

(٧) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة، برقم ٢٥٨٩،

(٨) الأذكارللنووي: ١/ ٣٣٦.تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط رحمه الله، ط: دار الفكر، بيروت.

(٩) آفات اللسان في ضوء الكتاب والسُّنَّة، ص: ٩، لمؤلفه: د. سعيد القحطاني. ط: مطبعة سفير، الرياض

(١٠) أخرجه أبو داود، برقم: ٤٨٧٥.

(١١) الأذكارللنووي: ١/ ٣٣٨ .

(١٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب النميمة من الكبائر، برقم ٦٠٥٥، ومسلم، كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول، برقم ٢٩٢.

(١٣) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في الغيبة، برقم ٤٨٨٠، وأحمد، ٤/ ٤٢١، ٤٢٤.

(١٤) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في الغيبة، برقم ٤٨٧٦، وأحمد، ١/ ١٩٠، وانظر: صحيح الجامع، ٢/ ٤٤٢.

(١٥) أخرجه أبو داود، كتاب الآداب، باب في الغيبة، برقم ٤٨٧٨،

(١٦) الأذكارللنووي: ١/٣٣٦ .

(١٧) الأذكار للنووي: ١/ ٣٣٢.

(١٨) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، برقم ٦٤٧٤، وفي الترمذي: (من وقاه الله شر ما بين لحييه وشر ما بين رجليه دخل الجنة)، انظر: صحيح الترمذي، ٢/ ٢٨٧.

(١٩) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، بابٌ، برقم ٢٣١٧، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، برقم ٣٩٧٦، وانظر: صحيح الترمذي، ٢/ ٢٦٩، وصحيح ابن ماجه ٢/ ٣٦٠.

(٢٠) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان، برقم ٢٤٠٦. وانظر: صحيح الترمذي، ٢/ ٢٨٧، وصحيح الجامع، برقم ١٣٨٨ .

(٢١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ، ٢/ ٩٨٨، والنسائي في الكبرى، برقم ١١٨٤١ .

(٢٢) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم لابن رجب الحنبلي، ١٤٨/٢، ط: بيروت.

(٢٣) عيون الأخبار:١٩٣/٢،ط: دار الكتب العلمية –بيروت.

(٢٤) الأذكار للنووي: ١/ ٣٣٥.

(٢٥) المصدر السابق.

(٢٦) الصمت وآداب اللسان لابن أبي الدنيا: ٦٧/١، ط: دار الكتاب العربي – بيروت.

(٢٧) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء: ١/ ١٥٩، ط: دار المعرفة – المغرب. الطبعة: الأولى.

***

حفظ القرآن الكريم وفوائده

بقلم: الدكتور/ محمد شمشاد القاسمي(*)

يشكل القرآن الكريم منهجًا ربّانيًّا ودستورًا إلهيًّا كاملًا وشاملًا للحياة، ووثيقة تربوية موثوقًا بها، وهو كتاب الهداية والإرشاد والتوجيه لجميع الإنسان في كل مرحلة من مراحل الحياة، يرغب معظم المسلمين كثير الرغبة في حفظ أكبر قدر وجزء منه لِما أعدّ الله تعالى من الأجر والثواب للذين يتلون كتاب الله العزيز ويحفظونه، حيث يقول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ (فاطر:٢٩-٣٠)، وقد نوّه الله الكريم بذكر حَمَلة كتابه ووُعاة كلامه، ورفع من شأنهم، ووصفهم بالعلم والمعرفة قائلًا: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ (العنكبوت:٤٩).

وقد أشاد الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بشأن حفظة القرآن الكريم فجعلهم خير الأمة وأفضلها، وأرشد أمته إلى تلاوة كتاب الله العزيز وحفظه؛ حيث قال: «خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه»(١)، وفي رواية أخرى: «إن أفضلكم من تعلّم القرآن وعلّمه»(٢)، وقد جرى على لسانه عليه السلام المباركِ الوعدُ بالحسنة للذين يتلون كتاب الله العزيز: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرفٌ، ولكن ألف حرفٌ ولام حرفٌ وميم حرفٌ»(٣).

ويرى الكاتب محمد حسن بريغش «أنه لأمر مهم أن يتعلم الطفل القرآن الكريم قراءةً وفهمًا منذ السنوات المبكرة، وإنه لأمر ميسور أثبتته التجربة والواقع. وفي ذلك تتحقق أهداف كثيرة وتزداد خبرة الطفل وتنمو مهاراته ومواهبه وترقى مشاعره وتصفو نفسه»(٤).

فوائد حفظ القرآن الكريم

إن القرآن الكريم هو أساس الدين، والمصدر الأساسي الأول من بين المصادر التشريعية الأخرى لدين الإسلام، فهو الكتاب الإلهي الخالد المعجز الذي ما زال المسلمون ولا يزالون يعتمدون عليه في معتقداتهم الدينية، وقضاياهم الفقهية، والشؤون التربوية لأبنائهم، ومبادئ تنشئتهم السوية الصالحة، فالإلمام بهذا الكتاب الخالد وتلاوته وحفظه، والاجتماع والتحلق حوله والاستماع إليه، كل ذلك له أثر كبير وتأثير قوي في العديد من جوانب الحياة،

(*) وادي بني خالد، سلطنة عمان.

وفي القـرآن الكـريم الحـل العـادل لكـل مـشكلة وقضية، والتوجيه الحكيم لكل أمر، و«الذي ينظر إلى طلاب تحفيظ القرآن الكريم يجد أنهم من أسلم النـاس نفـسًا، وأحـسنهم أخلاقًـا وأكثـرهم تفوقًـا دراسيًّا وسط أقرانهم وما ذلك إلا انعكاس لأنوار القـرآن الكـريم عـلى الـنفس، فيكـسوها جمـال الأخـلاق، وصـفاء الـذهن والتطلـع إلى المُثُـل العليا»(٥).

فوائده الأخلاقية والسلوكية

القـرآن الكـريم لـه أثـر كبـير في تغيـير حيـاة الإنـسان وتحـسين أخلاقهـم وسـلوكهم، ورفـع مـستوى تعـاونهم في الـسلوك الاجتماعـي، وبـرهم بالآباء والأمهات، ومنعهم عن الجرائم والمعاصي، فقد أكّد الباحثون «أن هناك فروقًا في السلوك بين حافظ القرآن الكريم وغيره لصالح الحافظ منهم وأن للقرآن دورًا في حفظ سلوك حامله من الوقوع في المعصية وخاصة فيما يتعلق بوقت الخلوة»(٦)، هـذا، ومـن يتلـو القـرآن الكـريم ويحفظـه عـن ظهـر القلـب ويعمـل بـه يجنـي مـن الفوائـد الأخلاقيـة والسلوكية ما يلي:

١- السلوك القويم السوي والسمت الحسن.

٢- «يـربي القـرآن الكـريم المـسلم عـلى الحيـاة المستقيمة، والأخلاق الفاضلة، لما اشتمل عليه من العبر والحكم والتشريع، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء:٩)

٣- تربيـة العواطـف الربانيـة مـن خـوف وخشوع ورغبة ورهبة، وترقيق القلب والمشاعر، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَـزَّلَ أَحْـسَنَ ٱلْحَـدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِيـنَ يَخْـشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُـودُهُمْ وَقُلُـوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْـرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِـكَ هُـدَى ٱللَّهِ يَهْـدِى بِـهِۦ مَـن يَـشَآءُ ۚ﴾ (الزمر:٢٣).

٤- تربيـة المـسلم عـلى الآداب الـسلوكية مثـل خفض البصر، وغض الصوت، والقصد في المشي، والتواضع للمسلمين»(٧).

فوائده اللغوية

القرآن الكريم يزوّد حافظه وتاليه بما يلي من الفوائد اللغوية:

١- النطـق الـسليم، والتحـدث بطلاقـة، وإخراج الحروف من مخارجها.

٢- «تعويد اللسان على الفصاحة والبيان؛ فهو بإعجازه وفصاحته يطبع قلب المسلم على حسن البيان، والأسلوب اللغوي المبين»(٨).

٣- «إكساب الحافظ ثروة لغوية تمكنه من إتقان اللغة العربية وتساعده في نفس الوقت في تحصيله الدراسي»(٩).

و«قـد توصـلت العديـد مـن البحـوث والدراسات إلى أن التلميذ (الحافظ لبعض سور القـرآن الكـريم) يتميـز عـن غـيره بالفهـم اللغـوي، وقدرتـه عـلى التـذكر، والطلاقـة اللفظيـة، وإدراك العلاقـات اللغويـة، والـصياغة الـسليمة للجمـل، بالإضـافة إلى تحـسين مـستواه في القواعـد والهجاء، ومـن ثَـمّ ارتفـاع مـستوى النمـو اللغـوي لديه»(١٠).

فوائده في تقوية الذاكرة وتنشيطها

ما هي الذاكرة؟

إن الذاكرة تُعَدُّ من الركائز الأساسية للعملية التعليمية، فترى د. ميادة أسعد موسى «أنه لا يمكن أن يحدث التعلم أو أن يكون هناك ذكاء حاد بدون الذاكرة، وإن الذكاء هو القدرة على التعلم، والتعلم هو القدرة على اكتساب المعلومات والمعارف الجديدة، أما الذاكرة فهي القدرة على الاحتفاظ بتلك المعلومات والمعارف»(١١)، فالذاكرة هي مخزن المعلومات وربان الدماغ، وتمثّل مكونًا من مكونات النموذج المعرفي لتجهيز المعلومات ومعالجتها، وتؤثّر تأثيرًا حيويًّا على الإدراك واتخاذ القرارات وحل المشكلات واشتقاق المعلومات الجديدة وابتكارها.

وإن الدراسة لأداء الذاكرة قد جعلت علماء النفس يتوصلون إلى عديد من المبادئ المرتبطة بالتعلم والحفظ والاستذكار والتعليم، والتي أخذت طريقها إلى المجال التطبيقي في الحقل التربوي. و«مع التسليم بأن الله تعالى وهب لبعض الناس ذاكرة قوية، وأن لكل فرد مستوى من التذكر يتقرر في ضوء حقيقة علمية تتمثّل في وجود فروق فردية في أداء الذاكرة وتتنوّع في ذلك الأداء، مع ذلك فإن تدريب الذاكرة ومراعاة عدد من العوامل في التعليم والتعلّم والحفظ، يُحسن من أداء الذاكرة ويرفع مستوى قدرة المتعلّمين على استرجاع المعلومات واستدعائها»(١٢)، فالذاكرة حسب مستوياتها قوة وضعفًا تلعب دورًا مساعدًا مهمًا في حفظ النص.

ومما لا ريب فيه أن حفظ القرآن الكريم يتحلّى بمزايا جمة وفوائد كثيرة هي ليست في النواحي العصبية فقط؛ بل له فوائد للقلب والعقل والذاكرة أيضًا، حيث يقوم الحفظ بـ«تنمية خلايا المخ بطريقة لا يمكن لشيء آخر أن يفعلها، من خلال عمل وصلات بين الخلايا العصبية ينتج عنها شبكة اتصالات عصبية، هذه الشبكة هي التي تبني أساسيات الذكاء، وإذا لم يكن حفظ المواد واستظهارها قويًّا أو لم يُعزَّز بانتظام فإنه سيفقد، وتبدأ الوصلات العصبية في الانحسار»(١٣).

وإن التمرينات الذهنية تقوّي الذاكرة كما ثبت ذلك بالدراسات العلمية، فيقول الدكتور مسعد شتيوي: «ويمكنك عن طريق التمرين المستمر للمخ أن تحافظ على هذه الاتصالات (الاتصالات العصبية الموجودة في المخ)، فإذا حفظت قصيدة من الشعر أو سورة من القرآن الكريم وداومت على مراجعتها باستمرار، فإنك بذلك تقوّي مسارات الذاكرة الخاصة بها فيكون من الصعب نسيانها»(١٤).

فلذلك ينصح العلماء المختصون في أبحاث الذاكرة والمخ بقضاء ساعة يوميًّا على الأقل في القيام بتمرينات ذهنية مثل القراءة أولعب الألعاب الذهنية أو حل الكلمات المتقاطعة لشحذ الذاكرة وتشجيع عملها، فيقول الدكتور ماريان دايموند المتخصص في أبحاث الذاكرة والمخ: «إن مخ الفئران ينكمش إذا ما تمّ حرمانها من الألعاب المحفّزة للتفكير، فكما أن رفع الأثقال والتمرين

المستمرّ يقوّي العضلات، كذلك الحال بالنسبة للمخ، فإما أن تستعمل مخك أو تفقد مخك»[١٥]، وإن تلاوة القرآن الكريم وحفظه ومراجعته وتدبره تتحلى بجميع هذه العمليات والتمرينات الذهنية في أفضل شكل.

وقد أثبتت البحوث العلمية والدراسات التجريبية الميدانية أن حفظ القرآن الكريم يقوم بدور فعال في تنمية عمل المخ والذاكرة وتنشيطها، كما يسهم في زيادة ملكة الحفظ لدى الأطفال، ويُعتبَر القرآن الكريم وسيلة مهمة جدًّا لتقوية الذاكرة وتنشيطها، وتنمية مدى فهم الحافظين وقوة إدراكهم، و«شحذ الذاكرة والذهن، فالحافظ أسرع بديهة وأحفظ وأتقن من غيره لكثرة مرانه على الحفظ وضبط الآيات التي يحفظها»[١٦].

ولا شك في أن أهمية العناية بالقرآن الكريم هي لجميع مراحل الإنسان العمرية، ولكن تزداد لمراحله العمرية المبكرة أي مرحلة الطفولة المتوسطة والمتأخرة؛ لأن حفظ كتاب الله العزيز في هذه المرحلة هو أثبت وأقوى تأثيرًا في نفوس الأطفال وعقولهم؛ لأن «عملية الحفظ والقدرة على التذكر تنمو لدى التلميذ في هذه المرحلة»[١٧].

فوائده التعليمية والدراسية

إن حفظ القرآن الكريم يسهم أيضًا في تنمية دافعية التعلم والدراسة وتنشيطها لدى الطلاب وزيادة تحصيلهم الدراسي، ومن المعلوم أن «دافعية التعلم شرط أساسي في عملية التعلم الجيد؛ حيث توفر الرغبة في البحث وخوض المخاطر والمعرفة والمثابرة في المهمات التعليمية»[١٨]، و«تُعَدُّ الدافعية أيضًا مؤشرًا ومؤثرًا مباشرًا على أداء التلميذ وعلى تحصيله الدراسي؛ حيث إنه يمكن تفسير كثير من مظاهر السلوك الإنساني في ضوء دافعية الفرد؛ نظرًا لأن أداء الفرد وإصراره على القيام بأعمال معينة أو مواصلة هذه الأعمال يتوقف في معظم المواقف على ما لديه من دافعية»[١٩].

و«تُعتبر الدافعية في التعلم ذات أهمية كبيرة في العملية التعليمية التعلمية، فكلما ارتفعت الدافعية للتعلم عند التلاميذ كان تحصيلهم الدراسي مرتفعًا، وكلما كانت هذه الدافعية منخفضة كان تحصيلهم منخفضًا، مما ينعكس ذلك على تقدمهم الدراسي»[٢٠]، فالدافعية هي «من أهم الوسائل لتحقيق الأهداف التعليمية والصحة النفسية؛ لأنها من أهم العوامل التي تساعد على تحصيل المعرفة، وتعزيز الثقة بالنفس. وهذا ما نلاحظه عند التلاميذ الذين يحفظون القرآن الكريم الذي يغرس في نفوس حافظيه أهمية طلب العلم، ويربيهم على تحديد الأهداف والغايات المهمة في حياتهم فيخططون لتحقيقها بعون الله وتوفيقه فتكون دافعًا لتحصيلهم الدراسي»[٢١].

ومن فوائد حفظ القرآن الكريم التعليمية والدراسية الأخرى:

١- «إن القرآن الكريم يحثّ على العلم وطلبه، قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق:١).

٢- إن الهداية والاستقامة والتوفيق والنور

التي يغرسها القرآن الكريم في الطلاب الحافظين له يـؤثر في حيـاتهم الدراسـية، فيكـسبها الإخـلاص، والجد والاجتهاد.

٣- إن ترتيل القرآن الكريم كما أمر سبحانه وتعالى: قال تعالى: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ (المزمل:٤)، يكسب المرتل إتقان القراءة وفهمًا لما يقرأ، وبذلك يساعد الطالب في دراسته وتحصيله للمنهج المقرر.

٤- إن القرآن الكريم يؤثّر في تحقيق الصحة النفسية لدى الطالب الحافظ وينعكس ذلك على حياته الدراسية، وعوامل تحصيله الدراسي.

٥- إن حفظ القرآن الكريم يكسب الطالب ثروة لغوية، ويمكنه من إتقان اللغة العربية مما يساعده في تحصيله الدراسي.

٦- إن القرآن الكريم جامع لجميع العلوم المفيدة؛ لذلك يكتسب الطالب الحافظ للقرآن الكريم سعة الاطلاع ويثري حصيلته العلمية، مما يؤثر في تحصيله الدراسي.

٧- إن حفظ القرآن الكريم ودراسته وتدبره ينمي لدى الطالب العمليات العقلية كالتفكير والتخيل.

٨- إن حفظ القرآن الكريم يعمل على تنمية الوعي والقدرة على اختيار طرق التحصيل الدراسي المناسبة.

٩- إن تلاوة القرآن الكريم وحفظه وتدبره ينمي لدى الطالب مهارة الفهم والحفظ والتذكر.

١٠- إن تلاوة القرآن الكريم وحفظه وتدبره ينمي الشعور بالكفاءة والفاعلية الذاتية نحو التحصيل الدراسي لدى الطالب»[٢٢].

١١- إن حفظ القرآن الكريم يقوم بـ«شحذ الذاكرة والذهن؛ لذلك تجد الحافظ للقرآن الكريم أسرع بديهة وأضبط وأتقن للقراءة.

١٢- سعة العلم فالطلاب الذين يحفظون القرآن يتفوقون على زملائهم في كثير من المجالات العلمية حتى في الرياضيات والطب رغم تفاوتهم في السن والذكاء»[٢٣].

١٣- إن القرآن الكريم يعمل على «تربية ذهن المسلم على التأمل والتفكر والتدبر، والاستنتاج، والقياس، والاستقراء، وعدم قبول شيء بغير حجة أو علم.

١٤- تربية المسلم على التروي والتأني وعدم التسرع في الفهم أو الحكم والتعليم، وتثبيت القلب بالتدرج في الفهم، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ (الإسراء:١٠٦)، وقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة:١٦][٢٤].

ملخص المقال

بما سبق يثبت بالتأكيد أن تلاوة كتاب الله الخالد وحفظه وتدبّره لها فوائد ومزايا تتمثل في تحسين الأخلاق والسلوك، وتنمية القدرة اللغوية والتعبيرية، وتقوية الذاكرة والمخ والعقل والذهن وتنشيطها لدى الأطفال خاصة، وإضافة إلى ذلك، للقرآن الكريم آثار تربوية وتعليمية وتثقيفية وعلاجية ونفسية تعود على من يتلو هذا الكتاب

الإلهي ويستمع إليه ويحفظه ويتدبره، كما أنه يقوم بتعويد اللسان على الفصاحة والبيان، وينمي لدى الطلاب المقدرة على اكتساب مهارات أساليب التعبير الشفوي والكتابي، ونمو مهارات القراءة وسعة العلم إلى جانب حسن التدبر والتفكر والفهم السليم.

* * *

الهوامش:

(١) البخاري، رقم الحديث: ٥٠٢٧.

(٢) البخاري، رقم الحديث: ٥٠٢٨.

(٣) الترمذي، رقم الحديث: ٢٩١٠.

(٤) بريغش، محمد حسن، أدب الأطفال أهدافه وسماته، ط٣، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧م)، ص:٤٧.

(٥) اللطيف، عماد بن سيف بن عبد الرحمن العبد، أثر حلقات تحفيظ القرآن الكريم على التحصيل الدراسي والقيم الخُلقية، ط١، (جدة، دار التفسير للنشر والتوزيع، ٢٠١٤م)، ص:٤، (كلمة الناشر).

(٦) المرجع السابق، ص:٣٤-٣٥.

(٧) النحلاوي، عبد الرحمن، أصول التربية الإسلامية، (دمشق، دارالفكر، ١٩٧٩م)، ص:٨٣-٨٧.

(٨) المغامسي، «أثر حفظ القرآن الكريم في التحصيل الدراسي بالمرحلة الجامعية»، مجلة «العلوم التربوية والدراسات الإسلامية»، م ١٧، العام: ٢٠٠٤م، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، ص:٩٩.

(٩) الغيلي، د. زيد بن علي، «أثر حفظ القرآن الكريم في التحصيل الدراسي لدى طلبة المرحلة الثانوية في الجمهورية اليمنية»، مجلة الدراسات الاجتماعية، العدد:٢٢، يوليو- ديسمبر ٢٠٠٦م، رقم الصفحة غير مكتوب.

(١٠) رمانة، د. عيسى، «دور حفظ القرآن الكريم في تقوية وتنشيط الذاكرة لدى تلاميذ الطورين الابتدائي والمتوسط»، مجلة الطفولة والدراسات التربوية، الجمهورية التونسية، العدد:١، يوليو، ٢٠١٩م، ص:٢٩.

(١١) موسى، ميادة أسعد، «قياس سعة الذاكرة قصيرة المدى لدى أطفال الرياض، مجلة البحوث التربوية والنفسية، العراق، العدد:٤، ٢٠١٤م، ص:١٤٢.

(١٢) رمانة، «دور حفظ القرآن الكريم في تقوية وتنشيط الذاكرة لدى تلاميذ الطورين الابتدائي والمتوسط»، ص:٢٨.

(١٣) نفس المرجع والصفحة.

(١٤) شتيوي، د. مسعد، «المخ والذاكرة.. وسائل طبيعية وغذائية لتحسين عمل الذاكرة ووقاية المخ من أمراض الشيخوخة»، مجلة أسيوط للدراسات البيئية، العدد:٢٥، يوليو ٢٠٠٣م، ص:١٤٠-١٤١.

(١٥) المرجع السابق، ص:١٤١.

(١٦) الغيلي، «أثر حفظ القرآن الكريم في التحصيل الدراسي لدى طلبة المرحلة الثانوية في الجمهورية اليمنية»، رقم الصفحة غير مكتوب.

(١٧) صادق، أمال وأبو حطب، فؤاد، نمو الإنسان، ط١، (الجيزة، مصر، مركز التنمية البشرية والمعلومات، ١٩٨٨م)، ص:٤٨.

(١٨) توفيق، نجاة علي، «البيئة الأسرية وعلاقتها بدافعية الإنجاز لدى التلاميذ المتفوقين والعاديين»، مجلة كلية التربية، أسيوط، ١٩ (١)، ٢٠٠٣م، ص:٨٦٣.

(١٩) لطف الله، نادية، «أثر استخدام استراتيجية «فكر- زواج- شارك» في التحصيل والتفكير الابتكاري ودافعية الإنجاز لدى تلاميذ الصف الرابع الابتدائي المعاقين بصريًا»، مجلة التربية العلمية، كلية التربية، جامعة عين شمس، ٨ (٣)، ٢٠٠٥م، ص:١٦٨.

(٢٠) سليم حمي وعبد اللطيف فارح ود. ربيع العبزوزي، «حفظ القرآن الكريم وعلاقته بدافعية التعلم لدى تلاميذ المرحلة المتوسطة بمدينة الوادي، مجلة العلوم النفسية والتربوية، العدد:٠٤، ديسمبر ٢٠١٦م، ص:١٠١.

(٢١) نفس المرجع والصفحة.

(٢٢) المغامسي، «أثر حفظ القرآن الكريم في التحصيل الدراسي بالمرحلة الجامعية»، مجلة «العلوم التربوية والدراسات الإسلامية»، ص:١٠٣-١٠٤.

(٢٣) نواب الدين، عبد الرب، كيف تحفظ القرآن الكريم، (المدينة المنورة، مكتبة ابن القيم، ١٤٠٩هـ)، ص:١٩٣.

(٢٤) النحلاوي، أصول التربية الإسلامية، ص:٨٣-٨٤.

* * *

ابن الخطاب يوجّه الشعراء

بقلم: الدكتور/ عبد الرحمن عثمان

استطاع الخليفة الحازم عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يوائم بين تصريف شؤون الدولة الإسلامية الناشئة، وبين التصرف الحاذق في براعته الأدبية وعلمه بالشعر على نحو يثير العجب ويدعو إلى الإعجاب، فلم يصرفه جلال المنصب وخطورته عن الاستجابة لحاسته الأدبية التي شبت معه منذ حداثته، قبيل اعتناقه لدعوة الرسول عليه الصلاة والسلام، وإقباله عليها إقبالا كان مضرب المثل في مدى ما تحدث العقائد القوية في نفوس الذين يؤمنون بها عن بصيرة واقتناع.

وبهذه المواءمة البارعة اكتملت في الفاروق قدرات أدبية ثلاث: العلم برواية الشعر، والتذوق الفني لجماله وأصالته، والنقد لأنماطه المختلفة بطريقته التي ابتدعها في باب المعاني والألفاظ.

ولم يشأ أن يحطب في حبل طرفة بن العبد، والنابغة الذبياني، أو يسلك طريقهما في النقد الذي نعرفه لهما في العصر الجاهلي، وإنما أخضع المعاني الشعرية لما وقر في قلبه من صدق ويقين، وآثر منها مالا يذهب به الخيال إلى المبالغة المستكرهة، أو الكذب المفضي إلى السخف والإحالة؛ لأن ذلك أدنى إلى طبعه السمح، ذلك الطبع الذي ينبو نبوا شديدا عن البهرج، وينفر أشد ما يكون النفور عن الافتعال والادعاء، ومن ثم شرع المشعر العربي مذهبا نقديًّا لم يسبقه إليه سابق، ورسم للشعراء منهجا يلتزم الوجهة التي يراها جديرة بفن شاعر إسلامي يريد أن يسهم في بناء الدولة الجديدة الناشئة، وهذا المنهج لا يقع بعيدًا عما نعرفه لابن الخطاب من واقعية إسلامية فاضلة، وسلوك اجتماعي مهذب، ومثالية خلقية عتيدة، ومن هنا جاء مذهبه النقدي على مثال تربيته الإسلامية إذ كره من الشعراء أن يهيموا في كل واد، أو أن تجرح ألسنتهم أعراضًا أمر الله أن تصان.

وكما أحب الصدق في جانب المعنى، آثر الوضوح والسلاسة في جانب اللفظ، وإيثاره لهذين في صياغة الألفاظ، وإقامة الأسلوب يدل على ما في طبعه من وضوح وميل إلى البساطة الآسرة، ويدل كذلك على تأثره بالنسق القرآني الفريد، ذلك النسق الذي يبرأ من العوج، ويميل عن التعمية والغموض.

ومذهب ابن الخطاب في نقد الشعر وتمييز الجيد منه – كما قلنا – يعتبر طرازًا جديدًا ظهر لأول مرة في النقد العربي متسما بالموضوعية الذكية، التي أحسنت الفهم والتعليل فيما قررت من مبادئ ثلاثة لها خطرها وأهميتها في الفن النقدي، الذي كان حينذاك حديث الولادة على ألسنة بعض الجاهليين ممن صحت عنهم الرواية، أو اكتنفت أخبارهم شبهات قامت على الجحد أو الاتهام بالتزيد في بعض النماذج النقدية.

وخلاصة ما قرره عمر في مبادئه النقدية الثلاثة يتمثل بإيجاز فيما يلي:

أولا: الحذق في الصناعة الشعرية، وذلك يتناول

ما يسميه النقاد المحدثون. «بالشكل أو التصوير».

وثانيا: الصدق في الوصف، بحيث لا يجانب المنطق، ولا يفضي إلى الكذب، وهذا يتعلق بما يسمى «بالمضمون».

وثالثا: كراهية الإفحاش والثلب، وهنا يظهر جانب الالتزام والتوجيه للفن الشعري كما يظهر في المبدإ الثاني، ليسهم الشعر الجديد في بناء المجتمع الذي يريده الإسلام، وتقديما للناحية الجادة في إرساء قواعد الأخلاق والفضائل.

لقد روى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه. «أنشدني لأشعر شعرائكم، قلت: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: زهير، قلت: ولم كان كذلك، قال: «كان لا يعاظل بين الكلام، ولا يتبع حوشيه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه».

وهذه الرواية التي استفاضت في أمهات المراجع الأدبية تضع ابن الخطاب في الصدارة من نقاد العرب؛ لأنه وضع الأساس الذي قام عليه النقد العربي في أغلب صوره، حتى عصر عبد القاهر الجرجاني، حين تحدث في كتابه «دلائل الإعجاز» عن النظرة الجمالية في الشعر، فكان هذا سابقًا لنقاد الغرب في ذلك المضمار.

وإعجاب عمر بالحذق في الصياغة الشعرية عند زهير بن أبي سلمى، يجعله – لا محالة – معجبًا بصياغة الشاعر الحطيئة وحوكه للقريض، لأنه تلميذ زهير وراويته، غير أن إعجابه بحكيم العرب من حيث صدقه وأمانته في محاكاة الصفات التي يألفها الموضوع الشعري ولا ينبو عنها باعتبارها صفات غير غريبة أو منحلة، يجعله كذلك منصرفا بعض الشيء عن شعر الحطيئة حين يجنح إلى صفات فيها إفحاش ولذع..، ولكنه انصراف فيه تلفت إلى حذق الصناعة الشعرية، وفيه كثير من الإعجاب ببراعة التلميذ، وأناته الحاذقة في تقويم قريضه، وذلك شأن الناقد الذواقة حين ينظر إلى فن شاعر جمع في نتاجه قبحا إلى حسن كثير.

وبهذا المدخل الوجيز نستطيع أن نفسر موقف ابن الخطاب من شعر الحطيئة والنجاشي، غيرناسين ما عرضنا له في المقال الأول من توجيه وزجر رفيق بعض الشيء لعبد بني الحسحاس.

ولكن الرواية مستفيضة في المراجع الأدبية القديمة بأن عمر كان يستعين على فهم الشعر بل والقضاء فيه بشعراء مشهود لهم بالحذق والدراية، مثل حسان بن ثابت وغيره..، ولقد كان ذلك في مقام الخصومة، وإقامة الحد على شاعر يظلم الناس، ويلغ في الإعراض، وقد أجاب محمد بن سلام وأبو عثمان الجاحظ وغيرهما على هذه الاستعانة التي كان عمر غنيا عنها دون أدنى ريب، ولكنه الخليفة الذي يقضي بين الخصوم المتنازعين.

فالشاعر ينكر أنه أتى ظلما! ومن ألمه الهجاء يؤكد الظلم، ويؤيد العدوان على شخصه أو قبيلته، فابن الخطاب في موقف قضائي لا يبيح له أن يقضي بمقتضى علمه فقط، ثم وهو الخليفة لا ينبغي له أن يتعرض لسفه السفهاء بالقضاء في مثل هذه السفاهات دون التماس دليل حاسم من شاعر يؤمن بشاعريته ويرضى بشهادته المتقاضون، ليكون ذلك أدنى إلى العدل، وأدل على قيام الحجة التي تدرًا الشبهات، وتجعل الهجاء أمرا يحمل طابع الاعتداء دون شك أو جدال.

وهكذا كان تعليل الجاحظ وغيره لموقف عمر بن الخطاب من القضاء في هجاء الحطيئة للزبرقان بن بدر، وفي تعريض الشاعر النجاشي ببني العجلان وغمزه لهم

في جدهم الذي كانوا يفخرون به.

فحينما شكا الزبرقان الحطيئة إلى عمر، واستعداه عليه، أقدمه عمر وقال للزبرقان. ما قال لك؟، فقال: قال لي:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها

واقعد، فإنك أنت الطاعم الكاسي

فقال عمر لحسان بن ثابت: ما تقول؟، أهجاه؟، وعمر يعلم من ذلك ما يعلم حسان، ولكنه أراد الحجة على الحطيئة، قال: ذرق عليه. فألقاه عمر في حفرة اتخذها محبسا.

وابن قتيبة يزيد في هذه الرواية قوله: «فقال عمر للزبرقان بعد أن سمع هذا البيت. ما أراد هجاءك، أما ترضى أن تكون «طاعما كاسيا؟» قال: إنه لا يكون في الهجاء أشد من هذا فبعث إلى حسان يسأله».

ولا أظن صحة ما يروي ابن قتيبة عن عمر الذكي الأديب، فإن صدر البيت على أنه هجاء مستقل يشير إلى المراد من «الطاعم الكاسي» في آخر البيت، إلا إذا كان مراد الخليفة حسم النزاع وإنهاء الخصومة.

وحين هجا الشاعر النجاشي بني العجلان استعدوا عليه عمر، لأنه غيرهم بجدهم في شعره، وقد كان «العجلان» من دواعي فخرهم قبل هذا، لتعجيله القرى للضيفان، فقال عمر: وما قال فيكم؟، فأنشدوه قوله:

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة

فعادى بني العجلان رهط ابن مقبل

فقال عمر: إنما دعا عليكم.. ولعله لا يجاب..، فقالوا: إنه قال:

قبيلته لا يغدرون بذمة

ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر: ليت آل الخطاب كذلك، ونلاحظ هنا أن عمر انفصل عن بغي الجاهلية إلى وداعة الإسلام. قالوا: فإنه قال:

ولا يردون الماء إلا عشية

إذا صدر الوراد عن كل منهل

فقال عمر: فذلك أقل للسكاك (الزحام)، قالوا: فإنه قال:

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم

وتأكل من «كعب بن عوف ونهشل»

فقال عمر: كفى ضياعا من تأكل الكلاب لحمه..، قالوا: فإنه قال:

وما سمي العجلان إلا لقولهم

خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

فقال: كلنا عبيد الله، وخير القوم خادمهم. فقالوا: يا أمير المؤمنين هجانا، فقال: ما أسمع ذلك..، فقالوا: فاسأل حسان بن ثابت، فسأله، فقال: ما هجاهم، ولكن سلح عليهم.

ولسنا نجد تعليقا على هذا الخبر خيرا مما علق به ابن رشيق في العمدة، قال: «.. فأسلم النظر (عمر) في أمرهم إلى حسان بن ثابت فرارًا من التعرض لأحدهما، فلما حكم حسان أنفذ عمر حكمه على النجاشي كالمقلدين جهة الصناعة ولم يكن حسان على علمه بالشعر بأبصر من عمر رضي الله عنه بوجه الحكم، وإنما اعتل».

والحق أن عمر كان بصيرًا بالشعر بصره بأمر صلاح هذه الأمة، ولهذا كان صاحب مذهب في تقويم الحياة والشعر جميعًا.

* * *

* *

النفاق الذي واجهته الدعوة

بقلم: الشيخ عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني

لم يظهر النفاق في العقيدة والسلوك، إلا في المجتمع المدني بعد الهجرة؛ فقد ظهرت قوة المسلمين في المدينة، والنفاق ينمو كثيرا في ظل القوة، فلجأ فريق من الكفار والمشركين لإخفاء كفرهم وشركهم، وتظاهروا بأنهم مسلمون رهبة ورغبة: رهبة من قوة المسلمين، ورغبة في دفع الشر عن أنفسهم، وجلب النفع لها، و بذلك استطاع المنافقون أن يندسوا في تجمعات المسلمين، ويغشوا مجالسهم ويؤدوا معهم شعائر الدين من صلاة وحج، ويحضرون مجالس مشورتهم، ويطلعون على أسرارهم ولا يتراخون لحظة في تدبير المؤامرات ضد الإسلام والكيد له بما استطاعوا من الحيل بعد أن اتخذوا من النفاق غطاءً لكفرهم وسوء مقاصدهم، ولا ريب أن نفاق العقيدة كفر؛ بل هو أشنع من الكفر الظاهر، لأنه جمع الكذب والخداع إلى أصل الكفر.

ونفاق العقيدة الذي واجهته الدعوة لم ينسلخ عن نفاق السلوك، فالمنافقون كانوا يحرصون على أن يبدوا أمام الناس في سمت الصالحين من عباد الله؛ يذكرون الله بألسنتهم وقلوبهم أحلك من سواد الليل. وهم – في الواقع – أشد خطرا على الإسلام وعلى المسلمين من الذين أعلنوا كفرهم أمام الله والناس واعتزلوا المسلمين.

كيف واجه الإسلام ظاهرة النفاق والمنافقين؟

لم يُصدِر حكمًا بإعمال السلاح في رقاب المنافقين، للقضاء على دابرهم، ولم يحل بينهم وبين حقوقهم في الحياة، ولم يصادر حرياتهم لا في قول ولا في فعل، ولكنه وقف منهم موقفا سلميا فاقتصر دوره على فضح مؤامراتهم، وكشف أسرارهم، وتحذير المسلمين من الانخداع بهم، وتهديدهم بسوء المصير، ونهى الله صاحب الدعوة عن الركون إليهم والصلاة عليهم إذا ماتوا، ثم الاستغفار لهم أحياءً وأمواتًا.

وفي سورتي الأحزاب والتوبة تصدى القرآن – سلميًّا– لكثير من ألاعيب المنافقين في حدود الإطار العام لموقف الدعوة منهم.

فقد أرجف المنافقون إرجافًا شنيعًا وقت غزوة الخندق التي تحالفت قريش مع من استطاعت من قبائل العرب على غزو المدينة مقر الدولة الإسلامية الناشئة، وهي المعروفة بغزوة الأحزاب. وكان هدف المنافقين صد الناس عن الخروج مع صاحب الدعوة، لإضعاف قوته، وتمهيدًا لانتصار قريش

وحلفائها عليه.

فكانوا يشيعون روح التخاذل ويكذّبون وعد الله ورسوله ويقولون: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾.

ثم يُحرّضون الناس على الانسلاخ من قوات الدعوة وينصحونهم بالعودة إلى المدينة ويقولون: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ﴾.

ويبدؤون بتنفيذ مؤامرتهم الدنيئة فيستأذنون النبي في الرجوع إلى المدينة من ميدان القتال بدعوى حماية أموالهم وأسرهم من اللصوص: ﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا﴾.

فماذا صنع القرآن إزاء هذا كله؟ لم يخط نحوهم خطوة واحدة فيها أمر بقتالهم والإطاحة بأعناقهم، وسبي نسائهم وذراريهم ومصادرة أموالهم ودورهم، أو حتى حرمانهم من حقوقهم المدنية؛ بل اقتصر دوره على تكذيبهم وكشف الأسباب الحقيقية لهروبهم ولتثبيط همم الناس ...

ادعوا أن بيوتهم عورة فقال القرآن: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ﴾، ثم أفصح عن السبب الحقيقي الذي حملهم على ما صنعوا: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا﴾، وأنهم بسبب نفاقهم لو اقتحم عليهم العدو دورهم ثم طلب منهم الانقضاض على النبي وصحبه، والإعلان عن كفرهم صراحة لما تلكؤوا لحظة في إجابة ما طلبه العدو منهم: ﴿وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا﴾.

ثم يأمر الله رسوله -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- أن يقول لهم: ﴿.... لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

ثم تابعت السورة كشف خباياهم حتى الآية رقم (٢٠)، ومع هذا ظل المنافقون في المدينة بعد هذه الجرائم يتمتعون بكل حقوقهم في الحياة ويتنقلون بين أرجائها في حريات كاملة.

ترى: لو حدث مثل ما فعلوه ضد أي نظام حكم معاصر، ماذا يحدث من النظم الحاكمة؟

المصير معروف: عمالة -تعاون مع العدو - هروب من الميدان - خيانة كبرى للوطن - التحريض ضد النظام. ثم اعتقالات وتوجيه التهم المذكورة ثم تحقيقات، ثم محاكمات، وسعيد الحظ من يُحكم عليه بالمؤبد. و الشقي ليس له مصير إلا الإعدام شنقًا أو رميًا بالرصاص. ولا تنفعهم شفاعة الشافعين إن جرؤ أحد على الشفاعة لم، ولو باسم القانون!!

فليسأل خصوم الإسلام في الخارج والداخل، ليسألوا أنفسهم: هل فعل الإسلام شيئًا من ذلك مع ألدّ خصومه؟ وأخطر أعدائه؟ حين كان الإسلام يطبق على أيدى قادة يعرفون حقيقة الإسلام، ويحرصون كل الحرص على الالتزام بأوامره ونواهيه؟ نازلين على حكم الله ورسوله-ﷺ-، تاركين هوى أنفسهم، ماضين على أمر الله فكان واقعهم هو الإسلام في أجلى معانيه.

* * *

بقية إشراقة» المنشورة على ص ٥٦

والمركب من هاتين الكلمتين، وهو التواضع المتكبر أو التواضع الكاذب، بالغ من الشناعة والقبح كل مبلغ. وتجد كثيرًا من الناس يدعي أنه متواضع، ويحكي من أعماله وأقواله ثم يُنهيها بما يدل على التواضع وهضم الذات، وليس في الواقع متواضعًا، وإنما هو متواضع متكبر أو متواضع كاذب، يتظاهر بكل هذا التواضع -فعلًا وقولًا- لجلب المدح والثناء على نفسه.

ومن التواضع المتكبر أو الكاذب أنك تجد بعض الناس يذم نفسه، وينحي عليها باللائمة، و ليس ذلك إلا ليراه الناس متواضعًا هاضمًا لنفسه، فيسمو بذلك منزلته عند الناس، وتعظم في عيونهم مكانته وقدره، ويثقل وزنه، فيكيلوا له المدح، وتنطلق ألسنتهم بوابل من الثناء، ويُجلَب له من الآفاق حطام الدنيا الفانية.

قال أبو الفرج ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص١٤٠): «ومن الزهاد من يلبس الثوب المخرق، ولا يخيطه، ويترك إصلاح عمامته، وتسريح لحيته؛ ليرى أنه مَا عنده من الدنيا خير، وهذا من أبواب الرياء؛ فإن كان صادقًا في إعراضه عَنْ أغراضه، كَمَا قيل لداود الطائي: ألا تسرح لحيتك؟ فَقَالَ: إني عنها لمشغول، فليعلم أنه سلك غير الجادة؛ إذ ليست هذه طريقة الرسول ﷺ ولا أصحابه؛ فإنه كان يسرح شعره، وينظر في المرآة، ويدهن ويتطيب، وَهُوَ أشغل الخلق بالآخرة، وكان أَبُو بَكْر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يخضبان بالحناء والكتم، وهما أخوف الصحابة، وأزهدهم، فمن ادعى رتبة تزيد عَلَى السنة وأفعال الأكابر لم يلتفت إليه».

ويقول ابن رجب الحنبلي رحمه الله:

«وها هنا نكتة دقيقة، وهي أن الإنسان قد يذم نفسه بين الناس، يريد بذلك أن يُري أنه متواضع عند نفسه، فيرتفع بذلك عندهم ويمدحونه به، وهذا من دقائق أبواب الرياء، وقد نبَّه عليه السلف الصالح».

وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير: «كفى بالنفس إطراء أن تذمها على الملإ، كأنك تريد بذمها زينتها، وذلك عند الله سَفهٌ» (رسالة شرح حديث «ما ذئبان جائعان»، ص ٨٨).

ولتدرك التواضع المحمود وغيره اقرأ ما قاله الغزالي في «إحيائه»: «اعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان و واسطة، فطرفه الذي يميل

إلى الزيادة يسمى تكبرًا، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى تخاسسًا ومذلةً، والوسط يسمى تواضعًا. والمحمود أن يتواضع في غير مذلة، ومن غير تخاسس؛ فإن كلا طرفي الأمور ذميم، وأحب الأمور إلى الله تعالى أوساطها. فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر، و من يتأخر عنهم فهو متواضع، أي وضع شيئًا من قدره الذي يستحقه.... فإذن سبيله في اكتساب التواضع أن يتواضع للأقران، ولمن دونهم حتى يخف عليه التواضع المحمود في محاسن العادات؛ ليزول به الكبر عنه؛ فإن خف عليه ذلك؛ فقد حصل له خلق التواضع؛ وإن كان يثقل عليه، وهو يفعل ذلك فهو متكلف لا متواضع؛ بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولةٍ من غير ثقل ومن غير روية؛ فإن خف ذلك، وصار بحيث يثقل عليه رعايةُ قدره حتى أحب التملق والتخاسس؛ فقد خرج إلى طرف النقصان، فليرفع نفسه؛ إذ ليس للمؤمن أن تذل نفسه إلى أن يعود إلى الوسط الذي هو الصراط المستقيم، وذلك غامض في هذا الخلق، وفي سائر الأخلاق. والميل عن الوسط إلى طرف النقصان- وهو التملق- أهون من الميل إلى طرف الزيادة بالتكبر، كما أن الميل إلى طرف التبذير في المال أحمد عند الناس من الميل إلى طرف البخل، فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان، وأحدهما أفحش، وكذلك نهاية التكبر ونهاية التنقص والتذلل مذمومان، وأحدهما أقبح من الآخر. والمحمود المطلق هو العدل ووضع الأمور مواضعها كما يجب، وعلى ما يجب كما يعرف ذلك بالشرع والعادة».

ويقول الإمام المحاسبي (آداب النفوس، ص١٢٩): «واعرف تواضعك فِي وَقت مَا جفاك جَاف وأكرمك مكرم؛ فَإِن فيهمَا الْفِتْنَة فَإِن العَبْد رُبمَا أظهر التَّوَاضُع عِنْد الْكَرَامَة لِيَزْدَادَ مِنْهَا، وَرُبمَا تواضع عِنْد الْجَفَاء ليثبت لَهُ بالتواضع عِنْد ذَلِك منزلَة بَين النَّاس فتوقف عِنْد ذَلِك كُله، وفاتش الهمة».

ويقول العلامة أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي المتوفى: ٣٨٨هـ (كتاب العزلة، ص٧١): «ما بقي من الخير إلا الاسم، ولا من الدين إلا الرسم، ولا من التواضع إلا المخادعة؛ ولا من الزهادة إلا الانتحال؛ ولا من المروءة إلا غرور اللسان؛ ولا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا حمية النفس، والغضب لها، وتطلع الكبر منها؛ ولا من الاستعادة إلا التعزيز والتبجيل».

التواضع المتكبر

التواضع المتكبر: مركب من كلمتين تركيبًا وصفيًّا: الأولى:التواضع، والأخرى: المتكبر. والتواضع قبل التركيب مع الكلمة الأخرى كلمة رائعة روعةَ الجمال، تنم عن الهدوء هدوءَ الطبيعة، وعن المجد و الشرف، فالتواضع خصلة حميدة، مطلوبة ندب إليها الشرع، وهو قبول الحق، والخضوع له، وعدم ازدراء الناس، فهو من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عباده. والمتواضع من الناس يسلّم على من عَرَفَ، و من لم يعرف، وعلى الصغير والكبير، والوضيع والشريف، ويقبل بوجهه وقوله على من خاطبه حتى يقضي حاجته، ويعاشر الناس معاشرةً حسنةً، ويجلس كما يجلس العبد، ويأكل كما يأكل العبد، ويقوم بحق الخلق، وبحق الخالق. وهو في نفسه صغير، وفي أعين الناس كبير؛ قريب إلى الناس، قريب إلى الجنة، بعيد من النار.فهذه بعض الإيحاءات التي تحملها كلمة التواضع.

ومن أحسن ما سُمع في التواضع قول أبي محمد عبد الله بن أيوب التميمي- من أهل الْيَمَامَة شَاعِر مولد فصيح عَرَبِيّ عَالم مُتَكَلم- فِي الْفضل بن يحيى:

لعمرك ما الأشـــراف في كل بلدةٍ ... وإن عظموا للفضل إلا صنائع
أرى عظماء الناس للفضل خُشَّعًا ... إذا ما بدا، والفضل لله خاشع
تواضـــع لما زاده الله رفعـــــــةً ... فكل رفيعٍ عنـــده متـــواضع

والكلمة الأخرى من هذا التركيب الوصفي هي المتكبر. والتكبر صفة بغيضة كريهة كراهةَ رؤوس الشيطان، والكبر بطر الحق ورده، وغمط الناس، واحتقارهم وازدراؤهم بالقلب والقالب. والكبر قائد البغض، وفضل الحمق. والمتكبر يستنكف عن البدء بالسلام، والإقبال على الناس بوجهه، وبقوله على من هو دونه من الناس، ويعاف مجالسته، ولايعنى بشأنه، وإنما يعظم الكبراء والأمراء، ولايتصدى إلا لأمثالهم. والمتكبر بغيض عند الله، بغيض عند الناس، وهو في نفسه كبير، وفي أعين الناس صغير؛ بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب إلى النار.

(البقية على ص ٥٤)

أبو عائض القاسمي المباركفوري